# لبنان

# وطن قومي للنصارى في الشرق الادنى

«لا بد من اعلان اماني المسيحيين في الشرق ، اذ تحتفز الدول الكبرى لتقرير السلام وتأمين سعادة الشعوب كلها» .

صاحب الغبطة انطون بطرس عريضة
البطريرك الماروني
الانطاكي وسائر المشرق


umam
للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

# لبنان

# وطن قومي للنصارى
# في الشرق الادنى

---

«لا بد من اعلان اماني المسيحيين في الشرق ، اذ تحفز الدول الكبرى لتقرير السلام وتأمين سعادة الشعوب كلها» .

صاحب الغبطة انطون بطرس عريضة
البطريرك الماروني
الانطاكي وسائر المشرق

«لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق الادنى»، مذكرة رفعها مطران بيروت للموارنة المطران مبارك باسم فريق من المثقفين المسيحيين اللبنانيين والمشرقيين عام ١٩٤٨ لمنظمة الامم المتحدة.

ونظرا لما تحتوي هذه الوثيقة السياسية القانونية التاريخية من حقائق ووقائع وافكار ضرورية لمعرفة أفضل للقضية اللبنانية. ونظرا لقيمة المذكرة العلمية، لا سيما بالنسبة للبحاثة في الفكر السياسي والتاريخ والقانون، قررنا اعادة نشرها حرفيا بالصيغة التي وضعت فيها شكلا ومضمونا.

«منشورات التجمع»

١٩٨٣



# فهرس

# تصدير

« ان هناك شيئاً يجب ان يتخذ دستوراً للوحدة وهو القرءان الكريم الذي أنزله سبحانه وتعالى للعالم أجمع . »

( الامير فيصل آل سعود )

ايتها الامم المتحدة !

لقد ناضلتِ نضال الجبابرة دفاعاً عن حرية الشعوب والافراد وبعون الله القدير ، احرزتِ النصر وبشرتِ العالم بعودة السلام .

لقد اتخذتِ هدفاً لكِ ومثالاً اسمى لجهادك تجديد العالم وتنظيمه تنظيما عادلاً بحيث يتاح للجماعات ان تعيش في جو مفعم حرية وكرامة

ومن هذه الجماعات نصارى الشرق ، المشتتون في العالم الاسلامي ، وقد اوشكوا ان يصيروا نسياً منسياً ، فلا يبالي بهم اساطين الدول الكادحون لوضع انظمة العالم الجديد ، اذ غاب عن علمهم ان الاقليات المسيحية في الشرق ليست من العنصر العربي ، ولا صلة لها «بالعروبة» بالرغم من ان هناك خطلاً شائعاً باسناد العروبة الى سكان الشرق الادنى كلهم ، مع ان هذه الشعوب ليست كلها « عربية » .

ومن ثم يتوهم البعض ان ليس في الشرق سوى معضلة واحدة ، هي معضلة « الوطن القومي لليهود » ، وطن يقع في عالم ظنوه عربياً بكل اجزائه بدون ما استثناء .

لكن المسألة اكثر تعقيداً .

فلا بد اولاً من تبديد الالتباس الشائع في طريقة البحث عن «القضية العربية»

« والبلدان العربية » لان مثل هذا الالتباس هو علة العلل في سوء التفاهم السائد الان بصدد مشاكل الشرق .

فلماذا يقولون ان هناك « بلداناً عربية » ، بينما في الواقع الراهن لا نرى في هذه البلدان سوى امم مختلفة اختلافاً تاماً من حيث العنصر لا يجمع بينها سوى رابطة اللغة ، وبينما ديانتها الرسمية هو الاسلام — هذا مع استثناء لبنان ؟

اجل ، ان « الوحدة العربية » لا تعني في نظر دعاة « العروبة » سوى « الوحدة الاسلامية » ، وهذا ما سنبينه في الفصلين الحادي عشر والثاني عشر .

وطالما هذه هي الحال الراهنة ، علام يتجاهل الكثيرون ، في معالجتهم هذه القضية ، وجود قوم هم اقدم القاطنين بهذه البلدان ، وليسوا عرباً ولا مسلمين ؟

وهؤلاء القوم هم نصارى الشرق ، بمن يجدر بالعالم المتمدن ان يعنى بمصيرهم ، فينالوا في عالم الغد وطناً خاصاً يلجأون اليه ليعيشوا في ظلاله بامان وطمأنينة : وطن خليق بماضيهم المجيد ومؤهلاتهم الروحية الفذة .

انها لحقيقة ساطعة لا تفسح مجالاً للريب ، ان هؤلاء المسيحيين ، اذا ما دام تشتيتهم أقليات ضئيلة بين ظهراني اكثرية اسلامية ، وتحت سيطرة دولة اسلامية من طبعها ان تكون تيوقراطية ، اي خاضعة لمبادئ الدين الاسلامي ، — ان هذه الاقليات ، قلنا ، ستؤلف عاملاً للتشويش في قلب تلك الدولة ، وتتعرض حتماً لحالة من الذل لا تتفق والكرامة البشرية .

ان حرية المعتقد لهي اشد الحريات ضرورة ، ونصارى الشرق حريصون عليها حرصهم على حياتهم . والحال ، ان نظام الدولة الاسلامية التيوقراطية يقتضي ان تكون المبادئ والشرائع الدينيـة الاسلامية الاساس الشامل والاوحد لحياة الانسان في جميع مظاهرها الفردية والاجتماعية والعامة .

وهذه المبادئ والشرائع الدينية الاسلامية تبيح علناً وشرعاً الفروق

الفاصلة في معاملة « المؤمنين » و « الكفار » . ومن ثم ، اذا انتقل المسيحي الى الدين الاسلامي ، كان نصيبه الحفاوة والتكريم ، بينما المسلم اذا صار مسيحياً ، يستهدف للحكم عليه بالاعدام ، وذلك بموجب الشريعة القرءانية

فهل يمكن ان يعدّل المسلمون شرائعهم ، ويجعلوا الدولة « علمانية » ، وهم يعتبرون هذه الشرائع نفسها غير قابلة لايا تحوير ؟

ام ينبغي قهر المسيحيين تحت نير نظام لا يقر لهم بالمساواة في الحقوق والواجبات ، بل يفرض عليهم الذل فرضاً شرعياً وواقعياً ، فتمسي جماعاتهم مغلوبة على امرها الى الابد ، بعد ان ادت للحضاره خدمات جلى على مدى العصور ؟

على ان تجديد العالم سيتحقق بفضل حكمة القائمين به ، وهذه الحكمة مبنية اولاً على مبادئ العدالة والحق الطبيعي ، وهي ستحملهم ، بدون ما ريب ، على التأكد ان أسلم حل لهذه القضية هو حشد مسيحيي الشرق في وطن قومي واحد ، حيث يتكتل شملهم كتلة واحدة وعلى صعيد واحد من الناحيتين الادبية والاجتماعية .

وهذا الوطن موجود منذ القدم، هو لبنان ، ذلك البلد الوحيد الذي يمتاز عن سواه في هذا الشرق الفسيح ، بشرائعه المستمدة من المبادئ المسيحية الحقة في ما يتعلق بحرية المعتقد وسائر الحريات العامة .

في هذه الدولة الصغيرة رتع المسيحيون من مختلف الطوائف والاقليات الاسلامية التي لجأت اليه تحت ضغط الاضطهاد من قبل الفئة السنية ، بجميع مظاهر المساواة والحرية . لكن هذا المعقل للحريات كافة بات مهددا بخطر جسيم ، اي ان يفقد ما يميزه عن جيرانه ، وما ذلك الا من جراء الالتباس الناتج عن النعوت الملفوظة ، من « عرب » ، « وعروبة » « ووجه عربي » ، مما يريدون ان يسندوا الى اللبنانيين من الاوصاف .

فيتحتم اليوم على كل منصف الحفاظ على طابع لبنان الخاص كما هو

الآن ماثل للعيان وتثبيته تثبيتاً نهائياً بناء على تنظيم شامل لمصير النصارى في الشرق .

فيا اساطين الامم المتحدة

ويا ايها الرؤساء الروحيون للنصارى قاطبة ،

لا يغرب عن بال المسيحيين في الشرق ما لكم عليهم من الافضال في سالف العصور . لكنهم الان ، بينما تهدد كيانهم اخطار الساعة الخطيرة الحاضرة ، يوجهون اليكم نداء حاراً ، مذكرينكم بانهم احفاد أعرق الحضارات البشرية ، وقد نقلوها اليكم باءمانة ما بعدها امانة ، حاملين الى العالم اجمع مشعال الحضارة المسيحية حتى انتقلت اليكم كنوزها وصرتم اولياءها الامناء .

وفي مستقبل الايام لن يكون هؤلاء نصارى الشرق أقل جدارة منهم في سالف العصور ، هذا ، اللهم ، اذا اخذتم على عاتقكم ضمانة حياتهم في جو رافل بمظاهر الحرية الحقة ضمن نطاق وطن مستقل

فان لبنان ، وطن القيم الروحية والمعقل الحصين للثقافة العالمية ، حيث تلتقي الحضارات المختلفة وتتبلور ، هذا الجبل ، اذا ما توفرت له شروط الحرية ، سيبقى دوماً همزة الوصل بين الشرق والغرب ، وعاملاً فعالاً لتقرير عالم جديد تحتل في ارجائه المثل العليا المكان اللائق بها ، المكان الاسمى .



## الفصل الاول

# انساب نصارى الشرق

لا يجيز العقل السليم والمنطق تقرير انساب الشعوب بالاعتماد على الاوهام والعواطف ، والخيالات الشعرية ، بل على الوقائع التاريخية الثابتة

ومن المسلّم به لدى ائمة التاريخ باجماع منقطع النظير ان نصارى الشرق متحدرون من الفينيقيين والارامين الذين توطنوا في لبنان وسوريا قبل نشأة النصرانية بعهد بعيد ، وان هناك عدداً ضئيلاً من القبائل العربية المتفرقة لم تتوغل في انحاء حوران وبادية تدمر الا في العصور الاولى للنصرانية .

اما الفينيقيون والاراميون فمن ميزاتهم الخاصة ميلهم الفطري لاقتباس اللغات المختلفة على كثرة عددها ، فقد اتقنوا على التوالي وفي وقت واحد اللغات الفينيقية والبابلية ، والفينيقية واليونانية ، والفينيقية واللاتينية ، ثم الارامية ( السريانية ) مع اليونانية واللاتينية في ايام المسيح . وهكذا كان امرهم حتى القرن السابع ، اي حتى اجتياح العرب للانحاء السورية . عندئذ أخذت اللغة العربية تتسرب ونيداً في سوريا ، اما لبنان فلم تتوطد بين سكانه الا في القرن الثامن عشر .

وما زالت حتى الان في لبنان اثار ظاهرة لبقايا اللغة الاصلية المختصة بهذه الشعوب الارامية ، سواء في اسماء اكثر القرى والنواحي ، وهي اسماء محض سريانية ، ام في اللهجة العربية الشائعة بين عامة الشعب ، وهذه اللهجة الشائعة مستمدة من الاصول السريانية .

بل ان في سوريا الاسلامية الحاضرة ، في منعطفات جبل القلمون قرب دمشق ، قرى يتكلم سكانها النصارى والمسلمون على السواء الارامية أي السريانية ، وهي اللغة التي ورثوها عن الجدود على ممر العصور الغابرة . وهذه القرى هي

معلولا وعين التينه الخ ... بل ان السريانية ما زالت حتى الان اللغة الطقسية الرسمية لكنائس شرقية كثيرة ، وأبناء هذه الكنائس ، امثال الموارنة ، يتقنون القراءة والكتابة فيها ، وقد نقل علماؤهم روائع آثارها الى الغرب منذ اوائل القرن السادس عشر .

اجل لقد باتت اللغة العربية الان شائعة في لبنان وسوريا ، لكن هذا لم يتم الا بقوة الفتح ، ولان لهذه الشعوب مرونة خاصة في تلقن اللغات على اختلاف انواعها ، ولا سيا العربية ، وهي لغة سامية تقارب السريانية وقد تسنى لهم ، كما لاسلافهم في شأن الثقافة اليونانية والرومانية ، ان رفعوا مقام الثقافة العربية ، وكانوا في طليعة العاملين لنهضتها الاخيرة بفضل جهود احبارهم ورهبانهم ، ولتوجيه تلك اللغة طبقاً لمقتضيات الحضارة العصرية متغلبين على اشد الصعاب .



## الفصل الثاني

# معقل النصرانية في الشرق

كان من حظ لبنان ان يتشرف بزيارات كثيرة، تمام بها المسيح في اراضيه ، وكان من حظ لبنان وجارته سوريا ان يذيع الرسل فيها البشارة الانجيلية قبل سائر البلدان . وفي بانياس ( قيصرية فيليبوس ) ، الواقعة على تخوم البلدان الثلاث ، سوريا ولبنان وفلسطين ، دوى صوت المسيح عندما خاطب سمعان بطرس قائلاً : « انت الصفاة ، وعلى هذه الصفاة أبني بيعتي » . ومما لا يختلف فيه اثنان من ائمة التاريخ ان المسيح لفظ هذه العبارة التاريخية باللغة الارامية ، اي السريانية ، وهي اللغة الاصلية لنصارى الشرق ، وقد كانت شائعة في ايام المسيح من اطراف العراق حتى مصر ، فكانت لغة السيد المسيح طول حياته الارضية ، وبها كتب متى الرسول انجيله المعروف باول الاناجيل الاربعة . وعلى طريق دمشق تراءى المخلص للرسول بولس ، وفي قلب دمشق تلقن هذا الرسول بنفسه التعاليم المسيحية عن يد البار حننيا . وفي انطاكية انشأ القديس بطرس الرسول اول كرسي اسقفي عرفته النصرانية ، وفيها لاول مرة دعي اتباع المسيح مسيحيين .

وهذه الشواطئ اللبنانية نفسها، مهما حدثتنا عن السفن الفينيقية ومغامراتها في اقصى بحار الاوقيانوس، فانها ما زالت تحفظ حية ذكرى الزوارق الوضيعة التي نقلت نحو الغرب زعماء الرسل يذيعون بشارة الخلاص والسلام التي بدلت وجه العالم كله

ولما قصفت العاصفة الاسلامية في مجاهل البيداء العربية ، فاجتاحت العالم القديم من اقصاه الى اقصاه ، بارقة في طريقها الاخضر واليابس ، حتى بلغت ابواب فينا وبواتيه، اذا بسهامها الملتهبة تتحطم على سفوح لبنان الاشم ، فلا تنال من تلك الشعلة المسيحية التي اتباعها المخلص نفسه .

وقد شهدت العصور على التوالي هذه المعجزة الفريدة : اقليــة من المسيحيين يتحصنون بالصخور الجرداء وكهوف الوديان ،كأنهم الجزيرةالنائية تهاجمها الامواج من كل ناحية ، امواج الاسلام تارة ، وامواج الوثنية اخرى، من شواطئ البوسفور حتى اقصى الاراضي الاسيوية ، وهؤلاء الابطـال صامدون في عقيدتهم حريصون على حرياتهم تحت قيادة احبارهم المتحدرين بدون ما انقطاع من الرسل الاولين ٠

وبعد انهيار امجاد بيزنطية والاسكندرية وانطاكية والرهـا ، صمد لبنان وحيداً ، وكان المعقل الحصين للحضارة المسيحية، مجسماً امجاد الاوائل تجاه الاحفاد، على مدى العصور والايام كانه همزة الوصل بين القديم والحديث من اطوار النصرانية الخالدة ٠



الفصل الثالث

# الفتح الاسلامي

## ١ في عهد الامويين ( ٦٦٠ — ٧٥٠ )

في منتصف القرن السابع تقلص بطش مملكة الروم ، ومما زادها ضعفاً ووهناً حروبها ضد الفرس. فلم تصادف الجحافل الاسلامية كبير مقاومة في زحفها نحو الغرب وللحال انتزعت من ايدي الروم « الولايتين الفينيقيتين » فينيقيا البحرية مع عاصمتها صور ، وفينيقية المحاذية لجبال لبنان الشرقي مع عاصمتها دمشق .

وللحال لاذ كل ذي اباء وانفة من السكان الى منعطفات لبنان واوديته الوعرة العزيزة المنال وتحصنوا في صخوره بضراوة ما بعدها ضراوة ، حفاظاً على حرياتهم ومُبادئهم وتقاليدهم . على ان كثيرين من سائر السكان المسيحيين لم يبرحوا الاراضي السورية ومدنها ، مستهدفين لسوء معاملة الفاتحين .

لكن الادارة والخبرة في الشؤون المالية والاقتصادية والعمرانية لما يختلف كثيراً عن الحرب والقتال ، وهذا ما اضطر الفاتحين الى الاستعانة بالمسيحيين في تنظيم الدوائر الحكومية واعمالها ، فبقيت اللغة اليونانية الاداة الرسمية لاعمال الحكومة الجديدة طوال عشرات السنين . ثم لم يلبث الاسياد الجدد ان تدربوا على اساليب الحكم فاحتلت اللغة العربية مكان اليونانية واخذ الخليفة عبد الملك ( ٦٨٥ — ٧٠٥ ) وخلفاؤه يطبقون على النصارى شرائع الدين الجديد تطبيقاً شاملاً وبدون ما هوادة .

فكانت حالة « الكفرة » ، اي النصارى واليهود ، حالة استثنائية ، أبقي عليهم من باب التسامح فقط ، لمنفعة تحصل منهم لاسيادهم ، حتى يتيسر لهؤلاء ان ينصرفوا بكليتهم الى فتح البلدان ودعوة الناس الى

الاسلام ، لان الارض وُهبت « للمؤمنين » ليكتسحوها ويستفيدوا منها .

فالنصارى « مشركون » و « كفرة » ضمنت الدولة الاسلامية لهم حياتهم واموالهم لقاء الجزية والخراج .

وهذه الاقوال مدونة بالقرءان نفسه : « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم ... ولقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلثة . » والكفرة ايضاً هم الذين لا يؤمنون برسالة نبي الاسلام لانه قال ايضاً : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله » .

فجميع الذين لم يسلموا هم كفرة يؤلفون طبقة من البشر زرية لا يعبأ بها . وآيات القرآن واضحة بهذا الصدد لا تستلزم تعليقاً ولاشرحاً . فيقول في سورة التوبة : « فاذا انسلخ الاشهر الحرم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا كل مرصد . فاذا تابوا واقاموا الصلوة واتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ... » « قاتلوا .. الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . »

وجاء في كتاب الخراج لابي يوسف يعقوب ، ان عبد الملك امر باحصاء غير المسلمين في العراق والموصل وسوريا ، وما كان لديهم من مال وعتاد ، ثم صادر هذه الاموال كلها تاركاً لاصحابها ما هو ضروري للقوت والملبوس فقط .

وبالرغم من كل ما تقدم ، فقد حسب المؤرخون ان هذه الحالة كانت خفيفة الوطأة بالنسبة الى ما عاناه النصارى في ايام العباسيين .

٢ ً — في عهد العباسيين ( ٧٥٠ — ٩٧٧ )

ما ان استولى بنو العباس على زمام الحكم . حتى بادروا الى تجريد حملة زحفت على النصارى في لبنان ، ونكلوا فيهم تنكيلاً ، واعملوا في البلاد يد السلب والتخريب

قال المقريزي في كتاب الخطط : « امر المتوكل على الله ( ٨٤٦ ) اهل

الذمة بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين في مؤخر السرج وعمل رقعتين على لباس رجالهم تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة منها اربع اصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الاخرى ، ومن خرج من نسائهم تلبس ازاراً عسلياً . ومنعهم من لباس المناطق وامر بهدم بيعهم المحدثة وباخذ العشر من منازلهم وان يجعل على ابواب دورهم صور شياطين من خشب . ونهى ان يُستعان بهم في اعمال السلطان ، ولا يعلمهم مسلم . ونهى ان يُظهروا في شعانينهم صليباً ، وان يشعلوا في الطريق ناراً . وامر بتسوية قبورهم على الارض . وكتب بذلك الى الآفاق. ثم امر في سنة ٢٣٩ هـ ( ٨٥٣م ) اهل الذمة بلبس دارعتين عسليتين والاقبية، وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين»

وما اكثر الكنائس التي حولت الى جوامع ، بل ان السلطات الاسلامية وضعت يدها على دور النصارى الكبيرة وحولتها الى جوامع .

ومن ثم ثار سكان حمص على هذه التدابير ، وكان نصيبهم التشريد في مدة لا تتجاوز اياماً ثلاثة ، ودمرت كنائسهم أو حولت الى جوامع(١)

وبفضل هذا الاضطهاد والخسف والتعنيف ترك الكثيرون من النصارى ديانة الإباء ، لا عن اعتقاد، بل عن اضطرار ، وانضموا الى المسلمين ، بينما الآخرون هجروا وطنهم الى بلاد اخرى أو اعتصموا بجبال لبنان مؤثرين الفاقة والشقاء صوناً لايمانهم وحرياتهم الجوهرية .

وهكذا ايضاً ارغم الخليفة المهدي البقية الباقية من قبيلة بني تنوخ العربية على جحد الايمان المسيحي واعتناق الدين الاسلامي (٢)

٣ً — في عهد الفاطميين ( ٩٧٧ — ١٠٩٨ )

واشتدت وطأة الفاطميين على النصارى اكثر من ذي قبل. وعاد الحاكم بأمره ( ٩٩٦ — ١٠٢٠ ) الى التنكيل فيهم معززاً شرائع اسلافه ضد

(١) عن المقريزي نشره دي غويه ، المجلد الثالث ، الصفحة ١٤٢٢

(٢) لامنس تاريخ سوريا . الجزء الثاني . الصفحة ٢٩٦

النصاري ، مضيفاً اليها شرائع جديدة، من ذلك ما اورده المقريزي: « الزمهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار وساطهم ، ومنعهم عن عمل الشمانين وعيد الصليب ، والتظاهر بما كانت عادتهم فعله في اعيادهم من الاجتماع واللهو. وقبض على جميع ما هو محبس على الكنائس والديارات وادخله في الديوان ، وكتب الى اعماله كلها بذلك ، واحرق عدة صلبان ، وهدم الكنائس التي بخط راشدة ظاهر مدينة مصر ، واخرب كنائس المقس خارج مصر ، واباح ما فيها للناس ، فانتهبوا منها مـا يجل وصفه ، وهدم دير القيصر وانهب العامة ما فيه ، ومنع النصارى من عمـل الغطاس على شاطئ النيل بمصر ... واجبر النصارى على استعمال العنب المنقوع بالماء بدل الخمر في ذبيحة القداس واقام الجامع الازهر على انقاض كنيسة النصارى في القاهرة ... واخذ في هدم الكنائس كلها واباح ما فيها وما هو محبس عليها للناس نهباً واقطاعاً ، فهدمت باسرها ، ونهب جميع امتعتها واقطع احباسها وبنى في مواضعها المساجد . واخذوا امتعة الكنائس والديارات وباعوا باسواق مصر مـا وجدوا من اواني الذهب والفضة وغير ذلـك وتصرفوا باحباسها ... وعم الهدم في سنة ٤٠٣ هـ ( ١٠١٢ م ) بمصر والشام واعمالها وبلغ عدد ما هدم نيفاً وثلاثين الف بيعة ... » (١)

واليك الوصف الذي دبجه امين الريحاني لهذه المرحلة من تاريخ سوريا وليس من يجهل نزعة فيلسوف الفريكة السياسية وعطفه على «القضية العربية» قال:

« منذ سنة ٢٥٤ هـ الى سنة ٤٦٣ (٨٦٧ — ١٠٦٧ م) كان الحكم في هذه البلاد السورية حكم « اجناها لكم » . ولا فرق اذا كانت الدولة طولونية او اخشيدية أو حمدانية او كلبية . فيا لتعس الناس الذين عاشوا في

(١) راجع ايضاً ابن بطريق وابن العبري وغيرهما . — اما نتائج الفتح الاسلامي للقطر المصري فكثيرة ، ويكفي القول ان عدد السكان كان يزيد على العشرين مليوناً قبل هذا الفتح ، ولما اجتاح نابوليون مصر لم يكن فيها ما يزيد على المليونين ونصف المليون .

ذلك الزمان المظلم ، وكل حاكم فيه يباري زميله ، أو يباهي خصمه ، بالمظالم وبالمذابح ، وبالنهب والسلب والسبي والتدمير .

— ابحناها لكم ثلاثة ايام !

« للسبي ما نكحوا، والقتل ما ولدوا ، والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا »

« يا للهول ويًا للويل ثم رحم الله من عاشوا في زمن الاباحات ولا رحم الله اربابها وجنودهم ! أبشر خُلقوا على صورة الله ومثاله يتحولون في ساعة واحدة الى وحوش ضارية ؟

« وهل يستحق اولئك البرابرة خمسين صفحة في التاريخ ؟ انهم لا يستحقون ، والله ، اكثر من سطر ، فيه كل امرهم . فقد تحاربوا وتكالبوا وذبحوا ، ونهبوا ، وفسقوا ، ودمروا . وبكلمة اخرى : قد استباحوا كل حلال من عرض ودم ومال . » (١)

وفي مكان آخر يسكب جام غضبه قائلاً :

« انتم الفاطميون ، وفيكم المعزّ لدين الله والمستنصر بالله ، والحاكم بامر الله ، الذين نبرأ منهم الى الله . وانتم الايوبيون ، وفيكم الصالح والعادل والكامل والاشرف والافضل والطاهر والناصر ، وليس فيكم والحق يقال الا القليل من العدل والفضل والصلاح . فالكامل ناقص ، والعادل ظالم ، والظاهر مكسور ، والناس مُرهَقون، مظلومون على الدوام .

« فهل يُلامون اذا هم سلكوا مسلك الثعالب الى خيرهم ، بل الى خلاصهم ؟ قال ابن أبي شامة : « كُسرت الفرنج ومن انضم اليهم من منافقي الاسلام كسرة عظيمة في عسقلان . »

« من منافقي الاسلام ؟ على رسلك ابن أبي شامة . فقد كان الناس في تلك الايام مثل ملوكهم يعملون لصالحهم قبل كل شي . وليس ثمة وطنية يخلصون لها او يخونونها . » (٢)

---

(١) النكبات ، لامين الريحاني ، صفحة ٥٥ — ٥٦ — بيروت ١٩٢٨

(٢) النكبات ، لامين الريحاني ص ٩١ — ٩٢

الفصل الرابع

# اعتصام النصارى بلبنان

قلنا ان اكثر المسيحيين السوريين أسلموا مرغمين مكرهين ، وان مئات عديدة منهم ثبتت في ايمان الجدود ، فعاشت متفرقة مبعثرة هنا وهناك في الارياف والمدن ، متحملة مختلف صنوف العسف ، راضية بما قسم لها من الآلام والاستعباد ، لكنها صانت ايمانها القويم ضد القوات القاهرة .

على ان القسم الاكبر من المسيحيين المحافظين على ايمانهم لاذوا بجبال لبنان الوعرة ، واعتصموا بصخورها واوديتها المنيعة ، حفاظاً على حرياتهم الغالية .

كانوا من فطرتهم يميلون الى حراثة الارض وشظف الحياة ، وكانوا جنودا ميامين لدى اضطرار الحاجة . وهكذا ثبتوا على تلك الصخور وعززوا مقامهم ، فبات لبنان المعقل الامين للنصارى ، حتى ان مؤرخي الاسلام عدوا موقع لبنان في البلاد الاسلامية موقع القذى في العين . قال البطريرك الدويهي في تأليفه « تاريخ الازمنة » ان الموارنة بما اتصفوا به من شكيمة وعزم وشدة المراس رمّدوا الصخور في رؤوس الجبال الشامخة وسقوها بعرق الجبين والدماء الغالية حتى حولوها الى بساتين غناء . فلم يكتفوا بحفظ حياتهم وصون حرياتهم واستقلالهم بل نشروا الرعب في نفوس اعدائهم .

عاش النصارى في لبنان ملتزمين العزلة من المسلمين الفاتحين ، فلم يخالطوهم البتة بل حافظوا على مميزاتهم العنصرية ، وعاداتهم وايمانهم .

واذا شئنا ان نتمثل امام اعيننا حالة النصارى في الشرق الادنى في القرن الحادي عشر بناء على وقائع التاريخ الحقيقية ، لخصناها كما يلي : جماعات من المسيحيين العنيدين المتحصنين في الغالب في لبنان يحيط بهم المسلمون من كل جانب ، وهؤلاء المسلمون انفسهم باكثريتهم الساحقة كانوا من اهالي

البلاد الاصليين ، اي من العنصر الارامي الفينيقي ، وقد ارغموا الفاتحين بفضل ما كانوا عليه من الرقي والاهلية ، على التخلق باخلاقهم والامتزاج بتقاليدهم .

وهذا الطابع الخاص لم يتبدل حتى ايامنا هذه ، بل ، بفضل العصبية والعسف الاسلامي ، بقي هو هو كما كان قبل الفتح الاسلامي ، صافياً سليباً على تعاقب الاجيال . وفعلاً تجيز الشريعة الاسلامية بزواج المسلم بالمسيحية بينما تحظر على الاطلاق زواج المسيحي بالمسلمة ، ومن ناحية اخرى لم يذكر التاريخ بتاتاً ان جماعات اسلامية اعتنقت الدين المسيحي . لذلك بقي العنصر المسيحي ، من حيث العرق والدم ، الى ايامنا خالصاً من كل اختلاط بالعنصر العربي . وهذه الحقيقة لا يختلف عليها اثنان من ائمة التاريخ شرقاً وغرباً وفي ايما عصر

وبالنتيجة ان ذيوع اللغة العربية بين سكان الشرق الادنى لا يعني انهم « عرب » ، وهذه الحقيقة يؤيدها الواقع الراهن والمبادئ العنصرية العلمية . بل ان مثل هذا الافتراء يعد اهانة بحق الذين قضوا مئات السنين وهم يجاهدون ضد ظلم « العرب » للبقاء امينين على وديعة الجدود ، والحفاظ على عنصرهم ، وعاداتهم ، وايمانهم .



الفصل الخامس

# ردح من الطمأنينة في عهد الصليبيين

ولما هبت جيوش الصليبيين واحتلت الاراضي المقدسة ، امتنع الاضطهاد عن المسيحيين فعاشوا في امان وطمأنينة طوال مائتي سنة تقريباً(١) ،وحلوا في المدن الكبيرة منصرفين الى مختلف اعمال الصناعة والتجارة. وشيدوا الكنائس والاديرة، مما آثاره ما زالت باقية الى ايامنا . واختلط الصليبيون بالاهالي المسيحيين ، وامتزج بعضهم ببعض . ولا غرابة في ذلـك ، ولا عجب ، لان لكلا الفريقين ثقافة واحدة ورقياً واحداً وذهنية متشابهة .

بل ان المسيحيين القاطنين في البلدان المجاورة للصليبيين والخارجة عن حكمهم أخذوا يشعرون ببعض الامان والسكينة ، لان اسياد تلك البلدان، بالرغم من كونهم مسلمين ، كانوا يخشون نقمة الصليبيين وبطشهم العنيف، فخففوا من وطأة الجور والاستبداد عن رعاياهم المسيحيين .

لكن ما أشد ما كان رد الفعل عنيفاً، حالما رحل الصليبيون عن الشرق اذ أبيدت جماعات غفيرة من المسيحيين عن بكرة ابيهم ، ودمرت مدنهم واديرتهم، وقوضت كنائسهم أو حولت الى مساجد وصودرت املاكهم كلها.

---

(١) في القرنين الحادي عشر والثاني عشر .



# في عهد الايوبيين والمماليك

توالت النكبات على النصارى بعد انقراض حكم الصليبيين ، وساءت حالهم ، وكانت الغزوات تتبع الغزوات على جبل لبنان ، المعقل الحصين . وقد يطول بنا وصف هذه الاهوال، وكم أريق من الدماء البريئة ، لكننا نكتفي بذكر حملة جردت في العام ١٣٠٥ على المنطقة الكسروانية للاقتصاص من اهاليها الذين حاولوا ان يتحرروا من نير الجور والارهاق المحيق بهم.

قال المؤرخ المسلم صالح بن يحيي في مؤلفه « تاريخ بيروت » في الصفحة ٣٢ نقلاً عن المعاصرين النويري والصلاح الكتبي : « كان أهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم ... وأظهروا الخروج عن الطاعة واعتزلوا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة وانه لا يمكن الوصول اليهم . ففي ذي الحجة سنة ٧٠٤ (١٣٠٥م) جهز اليهم جمال الدين آقش الافرم نائب الشام زين الدين عدنان . ثم توجه بعده تقي الدين وقراقوش وتحدثا معهم في الرجوع الى الطاعة، فما أجابوا الى ذلك . فعند ذلك رسم بتجريد العساكر اليهم من كل جهة وكل مملكة من المماليك الشامية . وتوجه آقش الافرم من دمشق.. وسيف الدين أسندمر نائب طرابلس وشمس الدين نائب صفد وطلع أسندمر من جهة طرابلس ، وكان قد نُسب الى مباطنتهم . فجرد العزم وأراد أن يفعل في هذا الامر ما ينفي عنه هذه الشناعة التي وقعت به . فطلع الى جبل كسروان من أصعب مسالكه واجتمعت عليهم العساكر واحتوت على جبالهم ، ووطئت أرضاً لم يكن أهلها يظنون ان احداً يطأها . وقُطعت كرومهم وأُخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتفرقوا في البلاد . واستخدم اسندمر جماعة منهم في طرابلس ... فأقاموا على ذلك سنين .. واختفى بعضهم في البلاد واضمحل امرهم وخمل ذكرهم . »

وذكر ابو الفدا أيضاً هذه الواقعة ، واصفاً أهالي كسروان بانهم « عصاة مارقون عن الدين » .

الفصل السابع

# الفتح العثماني

في العام ١٥١٥ انتقلت الخلافة الى أيدي الاتراك ، اذ استولوا على مصر واخضعوا لسلطتهم آخر سلاطينها قنصو الغوري . فاحتلوا محل المماليك في سوريا وصح فيها القول السائر : ان الارض التي وطئها الاتراك الفاتحون بارت وحل بها الخراب . ذلك انهم كانوا رجال سيف لا يرتاحون لغير المعارك والغزو والفتح تتوقف معيشتهم على ما يغنمون من الاسلاب .

ويشهد التاريخ انهم لم يبرهنوا عن كفاءة للادارة ولا عن اهتمام للامور الاقتصادية ولا عن مقدرة في التنظيم (١)

وحتى الآن ما زالت مأساة الاقليات المسيحية في سوريا ولبنان مطوية في بطون المخطوطات والمكاتب ، كما ان دماءها الغزيرة مدفونة في تربة هذه الاصقاع ، وقد يقتضي وصف هذه المأساة المجلدات الضخمة يشيب لهول فظائعها الرضعان . واذا كنا نشير هنا الى هذه الفصول الدامية ، لا لاننا نقصد ايقاظ الضغائن التي ينبذها الروح المسيحي السموح ، بل للتدليل على عنف هـذا النضال الطويل الذي ناضله المسيحيون حفاظاً على كيانهم وحرياتهم .

اجل ، لقـد صمد لبنان بوجه هـذه العواصف الهوجاء صمود صخوره الصلدة بوجه الارياح والصواعق وبصبر وجلد وايمان يضارع شدة ارزه الخالد قاهر الاجيال ، فبات الملجأ الوحيد يقصده كل ملهوف من مسيحيي سوريا والبلدان الشرقية ، مناطحاً البطش العثماني المربع ، دون ما هوادة ، مدافعاً عن استقلاله الذاتي وحرياته الجوهرية ، الحريات المسيحية الفذة .

كان الموارنة السابقين في احتلال حمى لبنان ، والتحصن في اعالي سفوحه الوعرة العزيزة المنال ، فأنشأ رهبانهم في أعاليه الاديرة محفورة في أعماق المغاور

(١) راجع الكاتب الالماني E. Banse : Die Turkei Berlin 1919

وعلى منحدرات الجبال ، مما يمكن رؤيته حتى في أيامنا هذه في دير مار انطونيوس قزحيا ودير قنوبين كرسي البطاركة ، ودير مار اليشاع في قعر وادي قاديشا . وتولى امراؤهم ومشايخهم ، ولا سيما الخازنيون منهم ، ادارة شؤونه المدنية والحربية ، فأرغموا عملاء السلاطين على الأعتراف باستقلالهم طوراً ، أو السكوت عنه اخرى . وقد سطر التاريخ مغامرات هؤلاء الابطال بعداد لا يفنى ، وبلغت أخبارهم اقصى بلدان الغرب

وبعد الموارنة لجأ الى لبنان سائر المسيحيين من مختلف الطوائف : الملكيون والسريان والكلدان والاشوريون واخيراً الارمن الذين هربوا من المذابح في كلا العهدين العثماني والكمالي .

وما أشد الفارق بين جو الحرية السائد في لبنان ، والحالة الباقية حتى الان في مختلف انحاء من الشرق الادنى ، حتى ان جميع الاقليات المضطهدة في العالم المزعوم « عربياً » ، راحت تطلب الامان في هذه البقعة الفريدة المباركة .

لكن لبنان لم يتمتع بشيء من الطمأنينة بين جيرانه المسلمين ، الا بفضل سهر ابنائه المسلحين ، بحيث يمكن القول ان السلام الذي تمتع به لبنان في تلك الآونة من تاريخه لم يكن الا سلاماً مسلحاً .

اما في سائر انحاء السلطنة العثمانية فكان المسيحيون يعيشون في حالة الاستعباد والذل ، لان الفوارق بين المسلمين والنصارى كانت معززة بقوة القانون الشرعي .

ولما رضيت الدول المتمدنة ان تقبل السلطنة العثمانية في مؤتمراتها الدولية ، بعد ان دافعت عنها في حرب القرم ، اشترطت لهذا القبول الغاء هذه الفوارق بين سكان السلطنة وازالة كل ما يتعارض والمبادئ الاساسية للعدالة والشرع الطبيعي مما هو اساس لانظمة الدول الراقية والجماعات المتمدنة . فأصدر السلطان عبد المجيد مكرهاً في ١٨ شباط ١٨٥٦ ، ذلك الفرمان التاريخي الشهير المعروف « بالخط الهمايوني » وفيه يعلن المساواة المطلقة بين سكان

السلطنة العثمانية ، بدون ما تفريق بين العناصر والمذاهب ، بحيث يتساوى الجميع في اداء الضرائب وتوزيع الوظائف والمنافع .

ان مبدأ المساواة هذا مفروغ منه في سائر الامم المتمدنة ، ولم يكن هناك من حاجة الى اعلانه بشريعة أو نص قانوني خاص ، لانه مستمد من جوهر العدل الطبيعي المسلّم به عند كافة البشر . بيد أن الفرمان المذكور لم يلبث ان اثار بين مسلمي السلطنة عاصفة من النقمة ، وراح ائمة العلماء في شرح القرءان والشرع يذكّرون اتباعهم بنصوص السنّة معلنين انها مقدسة لا يجوز تحويرها ، وانها كانت جارية التنفيذ منذ نشأة الدين الاسلامي ، وان هذه النصوص لا تعترف « لاهل الذمة » بالحقوق المدنية كسائر المسلمين ، بل هم قوم يتسامح الشرع بوجودهم شرط ان يتقيدوا بقوانين الضبط والربط لقاء الجزية والخراج . والجزية هي فدية الدم وبدل الحياة ضُربت لمنفعة المسلمين وهي على الذميين بمثابة الخراج على الاملاك ، الى غير ذلك من الادعاءات .

قام ذوو العصبية الذميمة بهذه الدعاوة فلم تلبث ان اتت بثمارها الدامية في مذابح العام ١٨٦٠ ، اذ قضى بحد السيف اكثر من عشرين الف من المسيحيين في دمشق وزحلة وحاصبيا وراشيا ودير القمر .

في تلك الاثناء كان الكاتب الفرنسي الشهير رينان يتجول في سوريا ، منقباً عن آثارها ، فكتب في ذكرياته : « لم يبق للشعوب التي دوخها الاسلام بحد السيف ايما وطن سوى الجامع والزاوية . »



الفصل الثامن

# لبنان في عهد المتصرفية

( ١٨٦٠ — ١٩١٨ )

كانت مذابح السنة ١٨٦٠ نتيجة لسياسة منظمة ، فتوالت فصوله المروعة طبقاً لخطة مرسومة مسبقاً « عن سابق قصد وتصميم » (١)

وما ان بلغت انباء المجزرة مسامع العالم المتمدن حتى هبت اوربا كلها تعلن سخطها وشجبها، وارغمت حكوماتها على التدخل تدخلاً حازماً وسريعاً لحقن الدماء وتسوية الحالة. مع ان هذه المذابح لم تكن بالاولى ولا الوحيدة من نوعها ، بل قد سبقها مجازر عديدة على تعاقب العصور ، اذ كانت المواصلات قليلة او معدومة بين الشرق والغرب

نشبت نيران هذه الفتنة بينما كان ابراهيم لينكولن يباشر حملته المجيدة لتحرير زنوج اميركا، وبينما كان عهد الملكة فيكتوريا يرفع بريطانيا العظمى الى اوج مجدها وسطوتها ، وبينما كانت فرنسا نجم الثقافة الاوربية بما كان ينتجه عباقرتها من روائع الادب والفن. في تلك الاثناء فوجئ العالم المتمدن بان شواطئ البحر المتوسط الشرقية كانت تتخضب بدماء الابرياء ، وذلك بهمة سلطنة كانت تطمح بالجلوس في مؤتمرات الدول لمعالجة معضلات

---

(١) راجع المجموعة القيمة التي نشرها شهيدا لبنان ، الشيخان فيليب وفريد الخازن وعنوانها « المحررات السياسية والمفاوضات السياسية عن سوريا ولبنان » وهي تتضمن تقارير قناصل الدول في بيروت ودمشق وصيدا عن مذابح ١٨٤٠ و ١٨٦٠ وظروفها ونتائجها والدور الذي لعبته كل دولة في هذه القضية ، وفي هذه التقارير والاسانيد من الحقائق والوقائع التي تشيب لهولها الرضعان . ولمجرد نشر هذه الوثائق اعدم الشيخان الشقيقان المذكوران شنقاً جنباً الى جنب في ساحة البرج ببيروت عام ١٩١٦

السياسة الدولية . وتوالت الانباء عن آلاف المسيحيين المذبوحين ذبح النعاج تحت انظار الحكام ، وان هناك قوماً مسالمين ، كانوا بالامس يجاورون يومياً النصارى ، ثم بين ليلة وضحاها تحولوا الى جزارين لا يردعهم رادع ، تحت دوافع العصبية الدينية العمياء . وقد شهد احد الانكليز، الذي كان يتجول في انحاء لبنان في اثناء هذه الفاجعة ، بان هــذه المجزرة ان هي الا نتيجة للدسائس الجهنمية التي قام بها ممثلو الاتراك (١) .

ورأت الدول الاوربية انه لا بد من التدخل العسكري لانقاذ الموقف وأوجبت على جميع السفن الماخرة في البحر المتوسط ان تتوجه الى بيروت وشواطئ لبنان .

وفي ٣ آب ١٨٦٠ قرر ممثلو الدول المجتمعون في باريس توجيه حملة فرنسية الى لبنان . وفعلاً نزل الجنرال دي بوفور الى الساحل اللبناني بستة آلاف جندي اعادوا الامن والسكينة وساعدوا على ترميم القرى المخربة وانقاذ المسيحيين المشتتين والمهددين بموت مقرر .

ثم تألفت لجنة دولية قوامها ممثلون لانكلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا ( المانيا ) والنمسا وتركيا ، فعقدت جلساتها اولا في بيروت ثم في الاستانة . وفي حزيران من العام ١٨٦٤ وضعت نظاماً ( بروتوكولاً ) خاصاً احرز لبنان بموجبه استقلالاً ناجزاً بازاء السلطنة العثمانية ، وقــد ضمنت الدول الست المذكورة هذا النظام . ومن اهم تدابير هذا النظام ان حاكم لبنان يجب ان يكون مسيحياً، وان حرية المعتقد مضمونة لجميع السكان اللبنانيين مع المحافظة

---

(١) راجع Colonel Churchill, The Druzes and the Maronites under the Turkish Rule, London 1862

ويتضمن الفصل الخامس من هذا المؤلف تفاصيل ضافية عن مذابح العام ١٨٦٠ . ولا يزال المتقدمون من اهالي البقاع يذكرون ، عن السلف ، « العم شرشر » ، وانه هو الذي وضع الخطط لمهاجمة زحلة بنجاح ، اذ كانت عزيزة المنال . ـــ راجع ايضاً تاريخ زحلة بقلم العلامة عيسى اسكندر المعلوف .

على عاداتهم وشعائرهم الدينية الخاصة .

وكان هذا الاستقلال الذاتي للبنان ، المعروف بعهد المتصرفية ، عاملاً قوياً لاستتباب الامن والسكينة واستقرار السياسة في انحاء الشرق الادنى كافة ، اذ اضحى لبنان اكثر من ذي قبل الملجأ الوحيد للنصارى المضطهدين في سائر انحاء السلطنة العثمانية .

وبفضل هذه السكينة وهذا الاستقرار ، اضمحلت المخاوف واخطار الغزوات ، فانصرف المسيحيون في لبنان الى النشاط الثقافي وجازوا شوطاً بعيداً في ترقية أحوالهم الاجتماعية وحياتهم الخاصة . ومن اغرب مظاهر هذا النشاط ، انهم بعثوا لغة القرآن من كبوتها وخمولها وجددوا امجادها القديمة بعد مرور خمسة قرون خيم فيها على الثقافة العربية الانحطاط والجهل . ومعروف ان مسيحيي لبنان، في أول الامر، لم يرضوا بهذه اللغة ولم يتلقنوها الا مكرهين على امرهم وتحت ضغط الاستبداد المتواصل . فاليهم يعود الفضل بانشاء المطابع الاولى في اللغة العربية، اولا في المدرسة المارونية برومية، ثم في معهد الصوربون بباريس ،واخيراً في دير مار انطونيوس قزحيا ودير مار يوحنا الصابغ بالخنشارة ودير طاميش ، وهم اول الناشرين لروائع الادب العربي ومبادئ الصرف والنحو والعروض ، واول من فتح المدارس والمعاهد ونظم دروسها تسهيلاً للناشئة .

وتوقف هذا النشاط فجأة بعودة الارهاب التركي الى انحاء لبنان في اثناء الحرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، اذ خرقت تركية حرمة استقلال لبنان ، وأعملت في أنحائه يد التخريب والتجويع ، فقضى اكثر من ١٥٠ الفاً من اللبنانيين ضحية الانتقام والظلم .

وفي العام ١٩١٨ كان نصيب السلطنة العثمانية الانهيار ، بفضل انتصار الحلفاء ، فاستعاد لبنان استقلاله وحقوقه المهضومة ، وهذا الاستقلال أعلنه رسمياً مندوب فرنسا الجنرال غورو ، باسم جامعة الامم في اول ايلول من العام ١٩٢٠

## الفصل التاسع

# القضية العربية

فتح السلجوقيون بغداد في العام ١٠٥٥ فدكوا صرح السيادة العربية في الشرق ، وكانت هذه السيادة قد باتت اثراً بعد عين منذ ان قبض الفرس على الخلافة في العام ٩٤٦ . ثم جاء صلاح الدين فقوّض سلالة الفاطميين في مصر في العام ١١٧١، وقد كان صلاح الدين نفسه كردياً واحد وزراء الخلفاء الفاطميين في حال نزاع سيطرتهم ، وللحال أنشأ امارات كردية صغيرة في مختلف الانحاء المصرية والسورية .

وحتى هذا العهد كانت العربية اللغة الرسمية في الدواوين ودوائر الحكومة ولكنها كانت قد اخذت في الانحطاط .

على ان الضربة القاضية حلت بها في العهد العثماني وبعد فتح القسطنطينية في القرن الخامس عشر ، اذ أبدلت اللغة العربية بالتركية وصارت كل المعاملات الرسمية تجري باللسان التركي . وبقيت هذه الحال حتى انهيار السلطنة العثمانية في العام ١٩١٨ . لكن آثار اللغة التركية بقيت في نواحٍ عديدة ، حتى ان ابطال «العروبة» المطلقة الحاليين ما زالوا الى الان يجيدون التركية أكثر من العربية . نذكر منهم رئيس الحكومة العراقية الباجه جي ، وجميل مردم بك وزير خارجية سوريا ، والامير عبدالله امير شرق الاردن، وغيرهم كثيرين ولا سيما بين رجال السياسة والحكم في وادي النيل .

وفي هذه الاثناء، تابع المسيحيون في الشرق معالجة اللغة العربية وآدابها ، بعد ان فُرضت عليهم فرضاً ، وراحوا يعملون على انهاضها من كبوتها وتسييرها مع مقتضيات العصر والتوفيق بينها وبين تيار الفكر الحديث ، بالرغم مما هي عليه من النفور مع الحياة العصرية . فساعدهم على ذلك تربيتهم على الآداب الغربية وتقاليدهم الفكرية المسيحية وبصلاتهم غير المنقطعة

بيلدان الغرب وجمهور الاحبار من كهنة وعلمانيين المتخرجين في المعاهد الاوربية ولا سيما في باريس ورومة العظمى .

ومما زادهم نشاطاً في هذا المضمار اندفاعهم في حركة المقاومة للاتراك واستبدادهم الغاشم ، فرأوا مناسباً التعاون مع المسلمين ، بواسطة وحدة اللغة ، والتقرب اليهم لنقض السيطرة العثمانية .

فكان المسيحيون في طليعة المنادين بالفكرة العربية في القرن التاسع عشر ، وكان رجالاتهم اللولب الفعال في المؤتمرات والجمعيات المعقودة لهذه الغاية في مصر وباريس .

وأخذوا في نبش روائع الادب العربي ونشرها في مطابع لبنان ومصر ، واحيوا تاريخ العرب وعاداتهم المطمورة في غياهب العصور الطويلة بل يمكن القول انهم هم الذين خلقوا من العدم الفن الصحافي والمجلات والنشرات الدورية ، تشهد بذلك كبريات الصحف والمجلات ، وكلها من نتاج عبقرية المسيحيين الذين رفعوا الفن الصحفي الى اوج بهائه (١) . وهذه صحافة الجالية اللبنانية في البلدان الاميركية ، وكلها من نتاج الاقلام المسيحية ، تدلل على فضل المسيحيين في بعث الامجاد العربية ونشرها على الملأ .

وانما اندفع المسيحيون في هذا المضمار ايقاظاً للحمية وفكرة الاستقلال في قلوب الشعوب المغلوبة على امرها تحت وقر الاستبداد التركي ، وتمهيداً لتقويض تلك السلطنة الباغية التي حوّلت الشرق الى بيداء قاحلة ، بعد ان كان مهد كل حضارة ورقي وعمران .

ومن كل هذه المظاهر الرائعة ، تتجلى فكرة الحرية والكرامة الشخصية ، التي هي الاساس الاول لكل حضارة وطمأنينة .

---

(١) راجع تاريخ الصحافة العربية ، للفيكونت فيليب دي طرازي .

الفصل العاشر

# بين الاسلام والعروبة

العروبة ، أو الوحدة العربية الشاملة ، موضوع دعاية واسعة النطاق في العالم اليوم . وحتى الان لم نسمع أحداً من أبطال هذه الدعاية يفيدنا عن حقيقة الامر من هـذه « العروبة » ، وأساسها المنطقي ، وطريقة تحديد جوهرها وقوامها .

وهذا ما يتساءله كل عاقل ، لمعرفـة المميزات الخاصة والادلة المنطقية على ما يسمونه « عربياً » أو « عروبة » .

١ هل هو العنصر والعرق؟ فنحن نقول : كلا ! لان ليس في التاريخ ما يؤيد هذا الادعاء ، بل بالعكس ، وقد رأينا في الفصول السابقة ان البلدان التي تسمى الان عربية يسكنها عناصر مختلفة وليس من يعارض هذه الحقيقة الا كل جاهل للوقائع التاريخية . وقد يطول بنا ، في هذه العجالة ، استعراض الشواهد في هذا الصدد . ونكتفي بالتلخيص الذي دبجه البحاثة طه حسين ، في حديثه عن أبي العلاء في كتابه « تجديد ذكرى ابي العلاء » ١٩٣٧ ص ٣٠ وما يليها حيث قال : « فلفظ « العرب » ، الذي يرسله التاريخ ارسالاً مطلقاً ، ليس يدل في نفس الامر على معناه الخالص ، الذي حفظته كتب اللغة ، الا في عصور خاصة وأماكن محدودة ، بل ربما لم يصدق هذا اللفظ في معناه الوضعي بعد الجاهلية ، الا صدراً قليلاً من الاسلام . فلو شئت ان تعرف الجيل الذي كان يدل عليه هذا اللفظ في الشام ، ايام ابي العلاء ، لوجدت ، بينه وبين المعنى الوضعي ، فرقاً غير قليل ... فقد كانت بلاد الشام ، ابان الفتح الاسلامي آهلة بالشعوب المختلفة ، من الارامين والنبط والعبرانيين والروم ... من المحقق ان الدم الذي كان لغير العرب من سكان الشام ، لان عدد الفاتحين ومتحضرة العرب في الشام ، وان كثر ، قليل

بالقياس الى سكان البلاد وأبنائها الاولين ... فأصبح سكان المدن الشامية وقراها وضواحيها متعربين وليس لهم من العربية في نفس الامر الا شعاع ضئيل ... ان لفظ « العرب » ، بمعناه التاريخي واللغوي ، لا يصدق حقاً على الامم التي تسمت به بعد الاسلام ، لما كان من الاختلاط الجنسي ، ولقصوره عن ان يشمل أمماً عجزت الامة العربية عن محو حياتها الاجتماعية الخاصة ، فبقيت ممتازة امتيازا تاماً ، كالفرس والترك والهنود والبرابرة في شمال افريقيا. وليس لفظ «المسلمين» باقل ضيقاً وقصوراً من لفظ «العرب» ، فما كانت تلك الاجيال ، التي أظلها عصر ابي العلاء وخفق عليها العلم الاسلامي ، بخالصة للاسلام من دون غيره من الديانات ، بل كان منها النصراني واليهودي والصابئ . ولم تشترك هذه الملل المختلفة في تكوين العلم والادب فحسب ، بل كان لها في تكوين الحضارة قسط موفور .» (١)

هذا ، ومن ناحية أخرى، قد رأينا ابطال العروبة والوحدة العربية يعدلون، منذ ان احرز الحلفاء النصر، عن التطبيل والتزمير للقوة والبطش، ويجاهرون بانهم مؤمنون بالمبادئ الديموقراطية ، شاجبون للديكتاتورية، وأعداء «للعنصرية» .

٢ً هل هي اللغة ؟ ولكن أي «عربي»، وأي بحاثة في تاريخ العناصر، يرضى باتخاذ اللغة حجة لتشييد صرح العروبة على مثل هذا الاساس الواهي، وارغام شعوب بكاملها على الرضوخ لسيطرة الغير ، لمجرد ان هذه الشعوب قد غلبت على امرها في سالف الازمان ، واتخذت مكرهة لغة ليست بلغتها؟ ومتى كانت وحدة اللغة عاملاً فعالاً لتكوين الوحدة السياسية والقومية ؟ فهناك سويسرا وكندا والبلجيك شاع فيها لغات مختلفة ، وهناك بلدان مستقلة بعضها عن بعض مع ان لسكانها لغة واحدة ، مثل الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا ، واسبانيا والبرتغال ودول اميركا الجنوبية .

قال امين الريحاني : « كان الفضل الاكبر في الفتح العربي الاسلامي ان استعربت الشعوب السورية ، وصارت العربية لسان اهل البلاد . انه لاسهل

(١) عاش ابو العلاء بين العامين ٩٧٣ و ١٠٥٨ .

على الشعوب ان يغيروا لسانهم من ان يغيروا تقاليدهم واخلاقهم . فقد تعاقبت على هذه البلاد اللغات الفينيقية والحثية والعبرانية والسريانية والارامية واليونانية واللاتينية . ثم جاءت العربية تحل محلها كلها . وكان الفضل في نشر العربية في البلاد السورية راجعاً اولاً للوثنيين من العرب ، ثم للمسيحيين قبل الفتح الاسلامي . ولا يزال المسيحي عاملاً في سبيل هذه اللغـة في سوريا ومصر والعراق ، حتى في ما وراء البحار ، في العالم الجديد . ولكن اللغة وحدها لا توحد العناصر ، ولا تتغلب على العصبيات . . . ولا الـدين ، وان كان دين التوحيد ، يساعد على الوحدة العنصرية والقومية . » (١)

٣ً هل هي الوحدة الجغرافية ؟ واي وحدة جغرافية بين لبنان والعراق وشرق الاردن واليمن والحجاز ؟

٤ً هل هو الدين ؟ يأبى أقطاب «العروبة» الرسميون المجاهرة بهـذا الرأي ، بل كل تلميح الى هذه القاعدة يثير من قبلهم أشد آيات الاحتجاج والاستنكار . والدافع القوي لرد هذه التهمة ظاهر للعيان ، لانهم اذا ما أقروا بحقيقة شواعرهم من ان «العروبة» مبنية على النعرة الاسلامية ، تحرج موقفهم السياسي ، وتحتم عليهم الاقرار بوقائع لا يرغبون فيها وهي :

اولاً ان مسيحيي الشرق يؤلفون ، في هذه الوحدة الاسلامية ، اقليات ، يحق لها الحماية الدولية .

ثانياً ان يحجموا عن ادغام لبنان في هذه الوحدة الاسلامية ، لان للبنان طابعاً خاصاً يستمده من اكثريته المسيحية .

فما هي اذن العروبة ؟

لا مندوحة لنا من تكرار هذه الحقيقة انه ليس هناك ايما شرح رسمي ولا تحديد صريح للكلمة «عرب» وفكرة «العروبة» . على ان بعض اقطابها استعانوا بالمبادئ الشائعة في دروس الحقوق العام الغربي وراحوا يشيدون صرح

---

(١) النكبات ، لامين الريحاني ، ١٩٢٨ ، صفحة ٣٧

«العروبة» والوحدة العربية على «وحدة الامجاد السالفة ووحدة الاهداف». و هذا هو المعنى الحقيقي للفكرة العربية، وهي فكرة دينية بجوهرها الصميم.

فاذا شئنا تحليل هذا الرأي قلنا :

١ً في ما يتعلق بوحدة الامجاد السالفة وذكريات الماضي :

ليس هناك أيا رابطة بين المسلمين ومسيحيي الشرق ، بل بالعكس. وهذه الحقيقة تؤيدها وقائع التاريخ منذ صدر الاسلام الى ايامنا. لان السيطرة الاسلامية ، في أمجد عهودها ، كانت علة شقاء وذل للمسيحيين. وبالعكس ، كلما اصيبت هذه السيطرة بالوهن والانحطاط ، كان المسيحيون يتمتعون بشيء من السكينة والراحة. ولا يزال هناك بين المسيحيين من يذكر الايام الاخيرة للسطوة الاسلامية حيث كان على المسيحي ، اذا ما صادف مسلماً ، ان «يطورق» وان «يشمل» ، اي ان يترك المجال له للمرور عن يمينه ويحني الرأس له خشوعاً واحتراماً. وما ذلك الا مظهر واحد من عشرات مظاهر الذل التي فرضها الدين الاسلامي وائمة الفقه (١)

قال امين الريحاني : « الظلم هو السبب الاول والاهم في زوال الدول العربية. واليك البرهان : كان حكم الخلفاء حكماً مردياً تيوقراطياً يرتكز على عصبية من العصبيات المتعددة ، لا على الجنسية العربية الشاملة لكل العصبيات » (٢)

وفي مكان آخر من هذا التأليف يقول ايضاً :

« ومن هم الاجداد ، اجدادي واجدادكم ؟

« القوي منهم كان ظالماً ، والضعيف كان مستعبداً » (٣)

---

(١) راجع « ملتقى الابحر » وشرحه مجمع الانهر في المجلد الاول من كتاب السير ، وهي كتب عمدة الشرع ومن أشهر المتون في الفقه الحنفي الخ.

(٢) النكبات ، لامين الريحاني ، صفحة ٢٩

(٣) النكبات لامين الريحاني.

٢ً في ما يتعلق بوحدة الاهداف :

ليس هناك ايضاً اية رابطة ، طالما ان أقطاب العروبة ما انفكوا يعلنون للملأ ان هذه الاهداف تتوقف على بعث «الخلافة» الاسلامية واحياء امجادها السالفة في أبهى مظاهرها . ولا يمكن للمسيحيين ان يتخذوا هذا المشروع هدفاً قومياً لهم ، كما انهم لا يروق لهم العيش بهدى ذكريات الماضي وشجونه المروعة. وما تحقيق هذه الاهداف سوى بعث السيطرة التيوقراطية الاسلامية المبنية على عدم المساواة بين «المؤمنين» و «الكفرة» ، وما ينشأ عن هذا الفرق من حقوق وواجبات لا تتفق والمبادئ الانسانية المسلّم بها في جميع اقطار العالم .



الفصل الحادي عشر

# العروبة هي الاسلام

بعد هذا التحليل الموجز « لوحدة الذكريات والامجاد السالفة ووحدة الاهداف» ننتقل الى صلب الموضوع، بحيث لا نرى انفسنا مبالغين اذا قلنا ان «العروبة» لا تعني سوى «الاسلام» وان بينهما اتصالاً وثيقاً ، اتصال العلة بنتيجتها ، بل ان العروبة ليست سوى اداة للتمويه والتضليل لاجتناب المخاوف الناشئة من الوحدة الاسلامية . واذا كان هناك من حاجة الى ادلة جديدة لاظهار هذه الحقيقة ، يكفينا ان نجيل النظر على المبادئ الدينية الاسلامية وعلى الحالة الراهنة في ايامنا ، ثم نعرض في الفصل التالي تصريحات لا يشوبها ايا ابهام أدلت بها شخصيات «عربية» كبيرة لا غبار على «عروبتها» .

١ً المبادئ الدينية الاسلامية : لقد أنشأ الرسول محمد «نبي العرب» ، دولة تيوقراطية ، فيتولى شؤونها « امير للمؤمنين » ، بدون ما تفريق بين عناصر هؤلاء «المؤمنين» . اما « غير المؤمنين » في هذه الدولة فلا يتمتعون بالحقوق المدنية ، بل يخضعون لنظام خاص بهم باعتبار ان الشريعة تتسامح معهم (١)

وفي نظر الدين الاسلامي ، ينقسم العالم الى قسمين لا ثالث لهما : « دار الاسلام » و « دار الحرب » . وبين هاتين « الدارين » لا يمكن ان يكون سوى هدنة يجوز خرقها في كل وقت حسبما يحسن لارادة «امير المؤمنين» . وكل حرب تقوم ضد البلدان الواقعة خارج « دار الاسلام » تسمى « جهاداً » او حرباً مقدسة .

وبما تقدم يظهر جلياً ان في « دار الاسلام » ليس من أثر للمبادئ

---

(١) راجع الفصل الثالث

القانونيـة التي يرجـع مصدرها الى الحق الرومـاني : اي الامة والوطن والحقوق المدنية . وما ذلك الا لان ليس ، في نظر المسلمين ، من أمة سوى الامـة الاسلامية ، ولا وطن الا « دار الاسلام » ، ولا انظمـة توزع الحقوق والواجبات الا تلك المستمدة من القرآن والحديث واجماع أئمة الاسلام الدينيين .

قال امين الريحاني :

« هو الخطأ الذي يخطأه السوريون ، أو بالاحرى الاكثرية في السوريين وهم المسلمون ، اذ يظنون ان العمران والرقي والسعادة القومية لا تكون الا بدولة اسلامية ذات صولة واقتدار . امـا العدل والمساواة ، والرفق بالرعية ، واحياء البلاد بالمشاريع الاقتصادية والصناعية ، فهي على ما يظهر امور ثانوية . . . والمشكل الاكبر في كل زمان من ازمنة هذا التاريخ ، هو هذه الاقليات والعصبيات التي تسيء اليها او لا تعدل فيها ، فتدفعها الى المقاومة الطائشة العمياء . . . »(١)

٢ً الشواهد التاريخية : لقد أجمع الولاة المسلمون في تفسير هذه المبادئ وتطبيقها باستمرار ، بالرغم مما كان بينهم من الخصومات والخلافات التي كانت تؤدي في كثير من الاحيان الى حروب دامية . وقد شيد الخلفاء والامراء العرب والفرس والاتراك والاكراد والبرابرة سلطانهم السياسي والاجتماعي على مبدإ السيطرة الاسلامية الدينيـة . ومعلوم من الحوادث التاريخية ان كل مقاومة ضد السلطة الزمنية « لامير المؤمنين » كانت تعتبر خروجاً على الدين، وامتهاناً لاقدس العقائد فتقابل بأشد مظاهر الانتقام.

كذلك ، كل « اصلاح ديني » كان يؤدي الى انشاء « امارة » جديدة ، لان السلطات الدينية والمدنية ملازمة بعضها لبعض في شخص رئيس الدولة . وهذا ما حدث بصدد خلافة الفاطميين والمملكة الوهابية .

---

(١) النكبات ، لامين الريحاني ، صفحة ٧٨ .

ومن ناحية اخرى نرى ابطال العروبة يجعلون ، في مصاف امجاد «العرب» السالفين ، فريقاً من السلاطين السلجوقيين الاتراك ، والفرس والاكراد ، ومن هؤلاء صلاح الدين ، ممن لا ينتمون بايما صلة بالعرب والعروبة ، الا صلة الدين الاسلامي . بل ان اكثر هؤلاء اقطاب العروبة ، ليس لديهم من حجة لتبرير « عروبتهم » سوى انتمائهم الى الدين الاسلامي . فرئيس الجمهورية السورية ، شكري القوتلي (=قوْتْلي) ، ورئيس وزارة العراق الباجه جي ، من اصل تركي ؛ والرئيسان سعدالله الجابري وجميل مردم بك من اصل كردي .

٣ْ الوقائع الراهنة الحاضرة : لا يمكن لاحد ان ينكر هذه الحقيقة الظاهرة لكل العيان ، ان البلدان « العربية » كلها ، بالرغم من ادعائها بتعلقها بالمبادئ والانظمة الديمقراطية الى اقصى حد ، ما زالت تجعل للدين الاسلامي منزلة خاصة ، باعتبار انه الدين الرسمي للدولة . هذه هي حالة مصر والعراق وسوريا وشرق الاردن ، وهذه هي خصوصاً حالة اليمن والمملكة العربية السعودية .

ففي كل عام ، في اثناء شهر رمضان ، تنذر الجرائد السكان بواجب الصوم وان كل من يخالف هذه الشريعة يستهدف للعقوبات المنصوص عليها في قانون الجزاء . وفعلاً اننا نرى رجال الشرطة يلقون القبض على كثيرين من المخالفين لهذه الشريعة في المقاهي والمطاعم ودور الملاهي . ( وما أشد الفرق بين هذه القساوة من قبل الحكومات الاسلامية وتسامح الدول الانكلوسكسونية التي تعفي من الخدمة العسكرية كل الذين في ضميرهم يعتبرون الحرب غير عادلة ... )

وما اشد ما كانت مظاهر النقمة والاستنكار التي سادت المحافل العلمية الاوربية لما بلغها ان الحكومة المصرية ، تحت تأثير الشعب الذي اشعل سعيره فريق من رجال الفكر المصريين ، نبذت المستشرق الذائع الصيت ، جوزف فانسينك ، من المجمع اللغوي الملكي المصري بمجرد انه نشر في دائرة

المعارف الاسلامية عن ابراهيم الخليل بحثاً لا يتفق وبعض اقوال القرآن . وهذا الحادث جرى في بلد تدعي بانها تحتل المقام الاول بين الدول العربية « الديموقراطية الحرة » .

مما لا ريب فيه ، ان لبنان هو ، في الشرق الادنى كله ، البلد الوحيد ، حيث يتمتع السكان بحرية المعتقد المطلقة ، بدون ما مراقبة من قوات الدرك والشرطة ، وبدون خوفاً من الاقتصاص القانوني .

وقد يطول بنا سرد الوقائع في هذا الصدد ، فنكتفي بحادثتين بالغتين لاظهار حقيقة ما نقول :

أولاً : لا مساواة في اختيار الدين

اذا انتقل المسيحي الى الاسلام كان نصيبه الاكرام والاعزاز . اما المسلم فلا يجوز له ان يصير مسيحياً تحت طائلة العقوبة بالاعدام ، وذلك بموجب شريعة القرآن المقدسة . ولتبيان هذه الحقيقة نكتفي بنشر مستند رسمي وقعه رئيس الحكومة السورية السيد حقي بك العظم .

ففي العام ١٩٣٣ اعتنق المسلم يوسف شحاده من حمص الديانة المسيحية ، فطلب تصحيح تذكرة نفوسه وتدوين مذهبه الجديد في سجل النفوس . لكن طلبه قوبل بالرفض . فراجع المندوب الفرنسي بدمشق ، وهذا الاخير طلب ايضاحاً عن القضية ، وذلك بموجب المادة ١٥ من الدستور السوري المطابقة لنص وثيقة الانتداب وروح جامعة الامم . فردت الحكومة السورية عليه بالرسالة التالية ترجمتها العربية :

الرقم ٣٥٦٤ — في ٢٢ ايار سنة ١٩٣٣

من رئيس مجلس الوزراء

الى السيد المستشار مندوب المفوض السامي في الجمهورية السورية

« رداً على كتابكم رقم ١٧ والمؤرخ في اول نيسان ١٩٣٣ لي الشرف بان افيدكم ان الشرع الاسلامي يقضي بالاقتصاص من المسلم الذي يعتنق ديانة اخرى : فهو يأمر باعدامه

اما المادة ١٥ من الدستور فقد اقرت حرية المعتقد المطلقة لكل السوريين ، واحترام الاديان كلها ، وضمان الممارسة الحرة لكل الطقوس ولكل المعتقدات ، بشرط ان لا يشوش الامن العام . . . بناء على ما تقدم، فان الاعتراف الرسمي من قبل الحكومة ، بتبديل المذهب، وذلك بتدوينه في سجلات النفوس ، يعتبر مخالفة فاضحة للشرع الاسلامي ، ذلك الشرع الذي قضى الدستور باحترامه .

ومن ناحية اخرى ، ارى من واجبي لفت نظركم الى حقيقة راهنة ، اي انه اذا أجيب الى طلب يوسف شحاده تثير عاصفة هوجاء من الغضب والاحتجاجات بين صفوف الشعب الاسلامي » الامضاء : حقي العظم

ومما هو جدير بالذكر ان كاتب هذه الاسطر هو السيد حقي بك العظم، تلك الشخصية البارزة المعروفة بتسامحها واعجابها بالمثل العليا الغربية . لكن السياسة قضت عليه بمسايرة الشعور الاسلامي السائد في البلاد وكتابة مثل هذا الرد في العام ١٩٣٣ ، أي في زمن كان يمكن لمندوب فرنسة بشطبة قلم ان يوقف الدستور ويحل المجلس النيابي ويعزل الوزراء من مناصبهم .

ثانياً : مقاومة والغاء القانون القاضي بحرية المعتقد

بعد ١٨ سنة خلت على الادارة الفرنسية في سوريا ، ظن المندوب السامي الفرنسي ان الافكار تطورت تطوراً كافياً ، فشاء ان يعلن بشرعة رسمية تنفيذ مقررات ميثاق الانتداب المتعلقة بحرية المعتقد والمساواة ، امام القانون، بين كل الرعايا السوريين بدون ما تفريق لاديانهم ، فأصدر لهذه الغاية مرسوماً مؤرخاً في ١٣ اذار من العام ١٩٣٦ تحت الرقم ٦٠ ل.ر. ثم اكمله وعدله بمرسوم آخر رقمه ١٤٦ ل.ر. مؤرخ في ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٨ .

وما ان صدر المرسوم الثاني المذكور ، حتى هبت عاصفة من النقمة والاحتجاج في جميع انحاء سوريا ، كأن الارض قد مادت رواسيها او هناك زلزال اقام الدنيا واقعدها ؟ مع ان المرسوم الثاني المذكور لا يرمي سوى الى

اعلان المعنى الحقيقي لحرية المعتقد والمساواة امام القانون ، كما فهمته واقرته البلدان الديموقراطية كلها .

وللحال عقد مجلس علماء دمشق اجتماعاً حافلاً ، ووجه الى الحكومة واذاع على الرأي العام بياناً صاخباً جاء بصيغة انذار للسلطات العليا لكي تلغي فوراً المرسومين المذكورين . والى القارئ أهم ما جاء في هذا البيان التاريخي :

« ان جمعية العلماء بدمشق قد راعها ما قرأته في الصحف المحلية والنشرة الرسمية من نظام الطوائف ذي الرقم ٦٠ المؤرخ في ١٣ اذار سنة ١٩٣٦ والقرار المعدل لبعض مواده ذي الرقم ١٤٦ المؤرخ في ١٨ تشرين الثاني سنة ١٩٣٨ الصادرين من المفوضية العليا — ذلك لما تضمناه من الاحكام المخالفة لكتاب الله تعالى الذي يتمسك بـه المسلمون من مشارق الارض ومغاربها ولا يرضون عنه بديلاً من نظم وقوانين وقرارات مخالفة لاحكامه ونصوصه الدنيوية والاخروية ويبذلون ارواحهم واولادهم واموالهم في سبيل المحافظة عليه وتأييد احكامه التي يعتقدون ان في اتباعها سعادتهم الدينية والدنيوية فرأت الجمعية من واجبها الديني ان تبين بعض ما جاء في هذين القرارين مخالفاً لاحكام التشريع الاسلامي .

« وها نحن اولاً نلخص ما جاء فيهما مع بيان لمخالفاته لتكون الامة على بينة من امر دينها :

« ١ً ان المادة الاولى مع القرار الاول اعتبرت المسلمين في دارهم طائفة كبقية الطوائف في البلاد السورية التي تريد السلطة ان تجعلها هدفاً للوصول الى غايتها التي ترمي اليها . مع ان ذلك مخالف للواقع ، ولقيود الاحصاء المثبتة ان البلاد السورية هي بلاد اسلامية يقطنها اكثرية مسلمة . . .

« . . . ٣ً جاء في المادة ١١ من القرار المذكور ان كل من ادرك سن الرشد وكان متمتعاً بقواه العقلية — يمكنه ان يترك او يعتنق طائفة

ذات نظام شخصي معترفاً بها . ومعنى هذا ان لكل واحد من المسلمين ان يترك دينه ومعتقده متى شاء وكيفما شاء ، حسبما يسيره هواه ، وتسول له نفسه . وهذا مما لا يجوزه الدين الاسلامي الحنيف بوجه من الوجوه وهو يعاقب المرتد عن دينه بالقتل في الدنيا وتخليده في النار في الدار الآخرة .

«واما ما جاء في الدستور السوري من ان حرية الاعتقاد مطلقة ـ فلا يراد منه الا ان لجميع الطوائف ان يمارسوا معتقداتهم وشعائر دينهم بحرية تامة .

«من اجل ذلك كله ــ تحتج «جمعية العلماء بدمشق» والمسلمون كافة على هذا القرار المخالف لاحكام دينهم الحنيف . وتستنكر الجمعية نشر هذا القرار في الجريدة الرسمية ، وتبليغه لجميع المحاكم الشرعية والنظامية والدوائر الحكومية وتطلب بالحاح من الحكومة ان تعيد النظام المذكور الى المفوضية العليا وان تؤذنها بان الامة الاسلامية لن تقبله بوجه من الوجوه ولن ترضى عن احكام شريعتها بديلاً وان تبلغ جميع المحاكم والدوائر اهماله ، وعدم اعتباره قانوناً مرعياً ، لحين صدور قرار من المفوضية العليا بالغائه والرجوع عنه ، لما فيه من الاجتراء على تبديل شرع الله ، والحكم بغير ما انزل الله . منتظرة نتيجة هذا الاحتجاج بفارغ الصبر .

«و «جمعية العلماء» تحمل الحكومة تبعة ما ينتج عن بقاء هذا القرار من اثر هياج المسلمين في سبيل دينهم ، وغيرتهم على احكامهم وعقائدهم . وفي هذا بلاغ !..»

الرئيس : محمد كامل القصاب

وكان لهذا البيان وقع شديد في الدوائر الدمشقية المسؤولة وغير المسؤولة فاجتمع على اثر ظهوره مجلس الوزراء في جلسة خاصة دامت ثلاث ساعات ، درس فيها البيان المذكور وقرر وقف مفعول النظام . فاتخذ وزير العدلية قراراً بهذا الشأن هذا نصه :

«بناء على القرار الذي اتخذه مجلس الوزراء ، يوقف تنفيذ القرار رقم

٦٠ المؤرخ في ١٣ اذار سنة ١٩٣٦ المعدل المتعلق بنظام الطوائف الدينية »

« الامضاء : وزير العدلية »

وفي حينه نشرت الجرائد السورية واللبنانية بيان « علماء دمشق » ، ومنها « البشير » في جزئها الصادر في ١٤ شباط ١٩٣٩ العدد ٥٧٢٨



موقف حر وشخصي ، كل ذلك ، في نظر الرقيب الحصيف ، ان هو سوى ذر رماد في عيون البسطاء من المسيحيين وحيلة للتضليل في هذه المرحلة الخطيرة ، مرحلة تكوين الوحدة العربية . لكن الاكثرية الساحقة ، المجردة من كل مصلحة شخصية خاصة ، تعرف حقيقة الامر من هذه الالاعيب ، فلا تتأثر بالمظاهر الفارغة ومعسول الكلام ، لان الوقائع القاهرة ظاهرة للعيان ، ولم يبق من مجال لسترها وتمويهها.



الفصل الثاني عشر

# تصريحات بالغة

من اغرب ما يلاحظه المراقب ان الانسان يـأبى تفهم المعنى الواضح لتصريحات الغير . هذا ما شاهدناه بصدد الطاغيـة هتلر ، الذي لم ينفك طوال سنين عديدة يجـاهر عالياً بعزمه على احراز السيطرة التامة في العالم، ولم يكن هناك من يريد أن يفهم هذه الاقوال الصريحة.

كذلك اليوم ، فان أقطاب العالم « العربي » لا يتقاعسون في كل مناسبة وبغير مناسبة عن المجاهرة عالياً ان الغاية الاخيرة من «العروبة» لا تتحقق الا بالوحدة الاسلامية وسيطرة المبادئ الاسلامية . وبالرغم من هذه التصريحات العلنية ، ينقلها الاثير الى اجهزة الراديو المنتشرة في المنازل الخاصة والمحلات العامة ، وتذيعها الصحف على اختلاف نزعاتها ومشاربها ، بالرغم من هـذا كله نرى هناك اناساً من ذوي النية السليمة الذين ما زالوا يؤمنون بانه من الممكن تحقيق وحدة عربية عادلة ، راقية ، تسود فيهـا مبادئ الحرية الشخصية والمساواة التامة في الحقوق والواجبات بين المسلمين والمسيحيين .

ان التصريحات المذكورة لا يجهلها احد ، لكننا نكتفي بايراد بعضها على سبيل التذكير ، ونخص منها ما هو صادر من رئيس حكومة مسؤول، وشيخين من علماء الاسلام ، واميرمن امراء العرب البارزين ، ومن مفكر له مقام رفيع في عالم القلم والثقافة . واليك اقوالهم نقلاً عن الجرائد :

اولاً : نوري باشا السعيد ، رئيس الوزارة العراقية

نشرت جريدة «الوحدة» الفلسطينية في عددها الحادي والعشرون بتاريخ ٢٧ اكتوبر ١٩٤٥ مضمون مذكرة سرية قدمها نوري باشا السعيد في كانون الثاني من العام ١٩٤٣ ، اذ كان رئيساً للوزارة العراقية . وهـذه المذكرة مكتوبة بالانكليزية وموجهة الى الوزير البريطاني في الشرق الادنى آنذاك ،

المستر كازي . وتحتوي المذكرة على مشروع لتوحيد البلدان العربية ، للاسباب التالية ، قال نوري السعيد :

« ان العرب كلهم ، ولا سيا عرب الشرق الادنى والشرق الاوسط ، يشعرون في صميم فؤادهم بانهم اعضاء من جسم واحد . ذلك لان شعورهم الوطني مصدره الشعور الاسلامي ، ذلك الشعور الذي يقضي عليهم بموجب وصية النبي محمد في خطبته الوداعية ، بان يكونوا اخواناً . ومن ثم فان قوميتهم تختلف كثيراً عن الوطنية الاوربية . اجل ان العرب يحبون طبعاً البلاد التي شاهدوا فيها النور . ولكن شعورهم الوطني لا تحده حدود ، لانهم يشعرون بحنين لبعث الحضارة العظيمة المتسامحة التي حققها الخلفاء الاولون . »

ثانياً : شيخان من كبار علماء الاسلام

نشرت جريدة «المانان» الدمشقية في جزئها الصادر في ١٤ تشرين الاول ١٩٤٣ عدد ٢٠٣١ تصريحاً للشيخ ابو الوفاء الشرغاوي مما جاء فيه : « اذا تحققت الوحدة العربية ، بعون الله ومساعدة الظروف ، فهذه الوحدة ستكون المرحلة الاولى في طريق المثل الاسمى للمسلمين ، اي الوحدة الاسلامية . لان القرآن وحده يستطيع ان يجعل من العرب امة موحدة مشيدة على مبادئه السماوية : الدينية والسياسية والاجتماعية . »

ونشرت جريدة « اخبار اليوم » المصرية في عددها ال ١٣ الصادر في ٣ شباط ١٩٤٥ مقالاً موقعاً من « الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر » ، عن زيارة الملك فاروق للملك عبد العزيز آل سعود ملك الحجاز ، فتحدث عن الآمال التي تثيرها هذه الزيارة في نفس « كل مسلم » ، فقال :

« وأنا من دعاة الوحدة الاسلامية التي دعا الله اليها ، والتي هي من أهم الاغراض التي يسعى اليها الإسلام ؛ والوحدة العربية طريق الى الوحدة الاسلامية في نظري . لان البلاد العربية ، كما قلت لك ، بلاد اسلامية يدين اكثر اهلها بالاسلام . واني لشديد الشوق الى اليوم الذي ارى فيه

البلاد العربية ترتبط بالبلاد الاسلامية الاخرى . »

ثالثاً : الامير فيصل آل سعود

في ٢٠ كانون الاول ١٩٤٣ ، اذاعت «وكالة الانباء العربية» في نشرتها ذات الرقم ٤٦٨ ، حديثاً خاصاً أفضى به سمو الامير فيصل نائب جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وذلك الى مندوبها الخاص بالقاهرة ، تناول فيه موضوع الوحدة العربية ومستقبل الشرق الاوسط . وقد نقلت الصحف في حينه هذا الحديث عن نشرات الوكالة المذكورة ومن أهم ما جاء فيه مايلي :

« انني ارى ان مستقبل الشرق الاوسط يقع في ايدي ابنائه وهذا المستقبل مرتبط بظروف بعد الحرب ولكن لا بد لنا ان نهتم بامورنا ونرعى مصالحنا بانفسنا ولا ندع لغيرنا الاهتمام بنا . » وتناول سموه الحديث عن الوحدة العربية فقال ان العرب متحدون في الاصل وان المفاوضات التي تجري في الوقت الحاضر بين الامم العربية ترمي الى اختيار الشكل وابراز معالم الوحدة . واقترح سموه ان تتدرج الامم العربية الى الوحدة لان ذلك اولى بالنجاح .

« واستطرد سموه قوله على ان هناك شيئاً يجب ان يتخذ دستوراً للوحدة وهو القرآن الكريم الذي انزله الله سبحانه وتعالى للعالم اجمع فما احراه ان يكون هو الدستور لهذه الوحدة المنشودة . وقد اشتمل القرآن على تعاليم دينية واجتماعية وسياسية وهو يدعو الى التآخي وارتباط المصالح فقد انزله الله لتحسين كل شيء في هذه الحياة وكل شيء احصيناه في كتاب مبين . والقرآن يشتمل الى جانب اركان العبادة على قوانين مدنية مجملة وعلى امور تتصل بالسياسة والاقتصاد والتجارة يمكن ان يستفيد منها جميع العرب دون اي اعتبار للخلاف والمذهب والعقيدة . »

رابعاً : الدكتور اسماعيل مظهر ( القاهرة )

الدكتور اسماعيل مظهر من كبار المفكرين والعاملين في سبيل الوحدة العربية ، وهو مع ذلك مغضوب عليه من قبل الغلاة المسلمين الذين يتهمونه

بالاستهتار بالدين . وقد نشر في مجلة « المقتطف » المصرية الشهيرة في جزئها الصادر في شهر نيسان ١٩٤٥ مقالاً مما جاء فيه :

« اقول مملوءاً ثقة بصحة ما اقول ان الاسلام فكرة جامعة ، ومعنى انه فكرة جامعة انه دين ودولة . ومهما قيل اليوم بعكس ذلك ، ومهما حاول البعض ان يخرج عن الاسلام هذه الصفة ، ومهما قيدت نظامات الحكم ، فسيظل الاسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة في فكرة واحدة . . . فاذا كانت حكومات المسلمين في هذا العصر قد اضطرت مغلوبة الى مجاراة روح النظام الحديث في المدنية الاوربية ، ففصلت بين الدين والدولة ، فان هذا الفصل ينبغي ان لا يتعدى انه فصل في الاوضاع لا في الروح . فكل حكومة من حكومات الاسلام في هذا العصر ، وان كانت قد قبلت الفكرة في فصل الدين عن الدولة واقامت على ذلك نظاماتها المدنية ، فانها قد نصت مع ذلك في دساتيرها على ان دين الدولة الاسلام .

« . . . ولكني اعتقد ان هذا النص لم يثبت في دساتير الدول الاسلامية الا استجابة لوعي خفي مستمد من روح الاسلام ، وانه دين ودولة معاً ، املته على اولئك المشترعين روح اسلامية لم تخبُ في انفسهم يوماً شعلتها ، وان كانت قد استخفت فانما كان استخفاؤها تحت ضغط ظروف لا حاجة بنا الى الافاضة فيها الان .

« فاذا قال احدنا الجامعة الاسلامية فانما يعني جامعة عربية روحها الاسلام ، واذا قال أحدنا الجامعة العربية ، فانما يعني جامعة اسلامية روحها العروبة .

« وكل قول ينابذ هذا القول خطأ . وكل نزعة تخالف هذه النزعة شعوبية خسيسة . »

# الخلاصة

من الفصول السابقة يتبين بوضوح ما بعده وضوح :

١ً ان العروبة والوحدة العربية لا يمكن فصلها عن الاسلام ·

٢ً ان للدولة العربية شريعة واحدة ، هي شريعة الاسلام المقدسة ، وان الحياة العامة والخاصة وجميع انظمتها والشعائر الدينية كلها يجب ان تخضع لهذه الشريعة ·

٣ً ان الاسلام ، وهو يؤلف دولة تيوقراطية، لا يعترف لغير المسلمين بالحقوق المدنية ، بل يجعل للمسلمين ميزة خاصة عن سائر ابناء البلاد ·

٤ً ان الاسلام ينبذ فعلاً حرية الاعتقاد، وهي التي تخول الانسان الحق بان يرتب حياته الخاصة طبقاً لمعتقداته الروحية الصميمة ، بدون ان ينشأ له عن ذلك أيما أذى يحط من كرامته في حياته العامة وبيئته الاجتماعية · ففي الدولة التيوقراطية الاسلامية تعتبر المساواة المطلقة بين المسلمين وغير المسلمين شكوكاً فاضحة لا يسع احتمالها ·(١)

---

(١) راجع بيان علماء دمشق ·



الفصل الثالث عشر

# كيف طبقت الدول الاسلامية

# مبدأ اللامساواة

ليس ما سردناه حتى الان مأخوذاً من صفحات التاريخ القديم أو من حوادث ما قبل التاريخ .هي الحقيقة اليومية القاهرة التي ما فتئت تظهر حية قاطعة في كل حادث طارئ على بلدان الشرق سواء ذلك في العام ١٩٣٢ ، او في العام ١٩٣٦ ، أو في العام ١٩٤٥ ، كما كانت الحالة في العام ١٨٦٠ او في العام ١٦٠٠ . ومجرد القاء نظرة الى هذه الوقائع المؤلمة لكافٍ لاقناع غير المسلمين المتهوسين للخيالات ، بخطل الرأي القائل ان الاسلام قابل للتطور ومجاراة العصر الحاضر وعقليته ، او انه قادر على التخلي عن حرف واحد من نصوص القرآن ، « ذلك الكتاب الذي يحمل بتعاليمه المسلمين على التضحية بحياتهم وابنائهم ومقتنياتهم للدفاع عنه والمحافظة على فرائضه وسننه ، تلك السنن التي ، في نظرهم ، هي مصدر كل خير روحي وزمني .»

ومما يمكن تأكيده كل يوم وفي كل مناسبة في البلدان الاسلامية ، اي في كل البلدان التي تدعى «عربية» ، ما خلا لبنان ، ان معاملة السكان فيها مبنية دوماً ، حتى في العصر الحاضر ، على اساس التمييز بين المسلمين وغير المسلمين ، وذلك لصالح الفريق الاول وضرر الفريق الآخر .

ففي مصر مثلاً ، وهو البلد الذي يفاخر بانه يحتل المقام الاول بين البلدان العربية نظراً لما بلغه من الرقي والعمران ، يعلم الاوربيون كلهم ( ولا سيما البريطانيون ) ممن لهم اضطلاع بالشؤون المصرية ، ان المسيحيين لا يتمتعون بالحقوق الناجمة عن التبعية المصرية ، حتى اذا كانوا متحدرين من

جدود قطنوا الاراضي المصرية، بينما المسلم المهاجر من زمن قريب من دمشق مثلاً ، ينال فوراً جميع المنافع الناتجة عن الجنسية المصرية .

وهكذا ، في ظروف عديدة ، رفضت الحكومة المصرية ان تمنح جوازات سفر فريقاً من المسيحيين الذين مضى عليهم وعلى عيالهم اكثر من ٥٠ سنة منذ ان نزلوا وادي النيل .

ولما اهدى المثري المصري الكبير ، يوسف الصدناوي ، الى الدولة مستشفى في القاهرة ، وقد انفق على انشائه ما يفوق المائة والخمسين الف جنيه ، شاء الملك فاروق مكافأته بمنحه لقب باشا،فخطب في حفلة مشهودة قائلاً : « اننا نأمل ان يسير على منهاج الصدناوي باشا كثيرون آخرون من كرام الاجانب ... »

من الالزامات المفروضة على الشركات الاجنبية في القطر المصري ان يعمل فيها عدد معلوم من الموظفين من اصحاب التبعية المصرية . وكلما صار تفتيش للتحقق من تطبيق هذا القانون ، ترفض الحكومة بان تحسب في عداد الموظفين المصريين كل من يحمل الاسماء المسيحية المعروفة ، مثل انطون وجورج وبطرس الخ . . .وهذا ما حدث فعلاً وبصورة مفضوحة بصدد شركة قناة السويس وشركة الشل الخ . . .

اما الموظفون المسيحيون في دوائر الدولة المصرية ، فليس من يجهل،ولا سيما في السفارات الاجنبية ، ان هناك خطة مرسومة تواصل الحكومة تنفيذها من سنين عديدة ، وهذه الخطة ترمي الى اقصاء هؤلاء الموظفين المسيحيين وتسريحهم تدريجياً .

وهذا قليل من كثير ، وقد يطول بنا سرد الحوادث المماثلة .

كذلك في سوريا ، حيث يسيرون على نفس الخطة وبصورة مفضوحة ، وذلك كلما توطدت دعائم « الاستقلال » ، وكلما تسلمت الجمهورية «الديموقراطية» الفتية صلاحيات جديدة كانت في الماضي خاضعة للفرنسيين .

يكفي القاء نظرة ، ولو سطحية ، على الاحصاءات الرسمية للاكات

الدولة السورية الحاضرة ، فنرى ان المسيحيين لا يحتلون سوى ١٥ مركزا من الدرجة الثالثة ، بينما اكثر من ٢٩٠ مركزاً من الدرجة الاولى يحتلها المسلمون، مع ان عدد المسيحيين يربي على الخمس من مجموع السكان.(١)

فهل يجوز، بعد هذا كله ، ان يتبجح رجال الحكم المسلمون بالتسامح وحب المساواة ، عندما يمنحون امثال فارس بك الخوري أو مكرم عبيد باشا وزارة ما ، مع العلم الاكيد ان لا مفر لهذين الشخصين وغيرهما من اتباع سياسة محض اسلامية . فقد يبدو للمراقب الغريب ، الذي يلقي الى شؤون الشرق نظرة سطحية عاجلة ، انّ هذه الظواهر تدل على «روح تسامح» جدير بالاعجاب . لكن الخبير صاحب النظر الثاقب يفهم جلياً ان وجود بعض الوزراء المسيحيين في الحكومة ، راضخين رضوخاً اعمى للسياسة الاسلامية ، ومكبلي الايدي تكبيلاً حديدياً بحيث لا يمكنهم اتخاذ ايما

---

(١) ننشر هنا لائحة بهذه الوظائف وطريقة توزيعها بين المسلمين والنصارى:

١ً محكمة التميز رئيسها مسلم ، ورؤساء محكمة الاستئناف الستة كلهم مسلمون .

٢ً ديوان المحاسبة رئيسه مسلم ، مجلس الشورى رئيسه مسلم ، المدعون العامون ١٧ منهم مسيحيان اثنان فقط . رؤساء المحاكم ١١ كلهم مسلمون .

٣ً رئيس الجامعة السورية مسلم ، وعميدا معهدي الحقوق والطب كلاهما مسلمان .

٤ً المحافظون عشرة وكلهم مسلمون ، القائمقامون ٣٢ منهم ثلاثة مسيحيين فقط ، مدراء النواحي ٦٢ منهم ٤ مسيحيين فقط .

٥ مدراء الوزارات العامون ٢١ كلهم مسلمون ، مفتشون عامون ومدراء الدوائر في الادارة المركزية ٣٣ منهم خمسة مسيحيين فقط ، رؤساء المصالح ومفتشون في دوائر الملحقات ٢٢ كلهم مسلمون .

موقف حر وشخصي ، كل ذلك ، في نظر الرقيب الحصيف ، ان هو سوى ذر رماد في عيون البسطاء من المسيحيين وحيلة للتضليل في هذه المرحلة الخطيرة، مرحلة تكوين الوحدة العربية . لكن الاكثرية الساحقة ، المجردة من كل مصلحة شخصية خاصة ، تعرف حقيقة الامر من هذه الالاعيب ، فلا تتأثر بالمظاهر الفارغة ومعسول الكلام ، لان الوقائع القاهرة ظاهرة للعيان ، ولم يبق من مجال لسترها وتمويهها .



الفصل الرابع عشر

# في سبيل حل عادل

ليس في نية نصارى الشرق وضع العراقيل بوجه الوحدة العربية، لكنهم، بكل حق، يأبون ان يكونوا «ابناء الجارية» خاضعين للسيطرة الاسلامية، التي ستكون الدعامة الاولى لتكوين «الوحدة العربية» المنشودة.

فاذا ما أراد البعض ارغام نصارى الشرق قهراً للخضوع لسيطرة هذه الوحدة العربية، فان هذه الوحدة نفسها ستكون دوماً هدفاً لاخطار عديدة ومعرضة لعوامل التفكك والانحلال. هذا، وفي الوقت عينه تتقرر بوجه العالم المتمدن حالة تتنافى ومبادئ الحرية والمساواة المستمدة من قواعد الحق الطبيعي، مما لا يرضاه احد ولا يسلّم به عاقل على الاطلاق في هذا العصر، عصر الكرامة الانسانية والمثل العليا الخالدة.

لقد سبق مشايخ العلماء الدمشقيون، في بيانهم المذكور آنفاً، واعلنوا على رؤوس الملأ ان المسيحيين، في بلاد عربية، لا يمكنهم ان يؤلفوا سوى أقليات محدودة لا حق لها بان تتساوى وسائر السكان، الذين هم اكثرية مسلمة حتماً. والحال، قد اثبتت الوقائع التاريخية العريقة انه لا يمكن للاقليات، ولا سيما تلك التي تعيش في ظل دولة تيوقراطية، ان تشارك الاكثرية في شواعرها العامة ولا ان تعتنق نفس المبادئ التي تدين بها الاكثرية. وفي الواقع، يأبى نصارى الشرق التحرش بالنظريات التيوقراطية التي أقرها الاسلام ووضع قواعدها العملية على اساس اللامساواة بين «المؤمنين» و«الكفار». وطالما هذه هي حالة النصارى، يتحتم على المسلمين ايضاً، بدورهم، ان لا يحنقوا عليهم لانهم يأبون الاندماج، قلباً وقالباً، في هيكل وطن لا يفتأ يذيقهم طعم الذل والحقارة، كأنهم من طبقة منحطة بالنظر الى الاكثرية المتسلطة.

ومن ثم يتبادر الى الذهن السؤال التالي .

ما هو الحل الموافق لانقاذ نصارى الشرق من حالة ذليلة لا تتفق وأقدس المثل العليا الانسانية فينفي الاكثرية الاسلامية ان تعيش حرة طبقاً لشعورها الاسلامي العربي؟

لقد جاهر المرحوم الرئيس ويلسون في خطابه الشهير الذي لفظه في ٢٢ ك٢ ١٩١٧ أمام الكونغريس الاميركي قائلاً : « السلامة والطمأنينة في الحياة ، والشعائر الدينية والرقي الاجتماعي ، هذا ما يجب تأمينه لكل الشعوب التي كانت حتى الآن مغلوبة على امرها تحت سيطرة دول ما فتئت تتمسك بعقائد وأهداف سياسية تتعارض وعقائد وأهداف هذه الشعوب ذاتها ... »

وفي الخطاب الذي لفظه في ٢٦ ايار ١٩١٧ اعلن ضرورة تحوير الحدود بين الدول ، لضمان الرفاه والحرية لجماعات من الاقليات الواقعة تحت نير الاغتصاب. فقال : « لهذه الغاية ، سنقوم بتعديلات فعلية للاوضاع الجغرافية، وهذه التعديلات ستحقق حتماً ، مهما كلفنا امرها ، لانه لا يجوز ارغام اي شعب على ان يخضع لسيادة ينفر منها . »

واخيراً في ١١ شباط ١٩١٨ كرر المجاهرة بهذه القاعدة الاساسية العادلة التي أقرتها وجاهرت بها الامم الحرة كلها : « مقدسة هي مصلحة الضعفاء. كما هي مقدسة مصلحة الاقوياء. . . ومن الآن فصاعداً ، لا ينبغي ابقاء الشعوب خاضعة لسيطرة وحكومة ألا برضاها الطوعي . »

بناء على ما تقدم ، لا يجوز ان تبقى ، جنباً الى جنب ، وعلى الدوام ، جماعات تستمد غذاءها الروحي من ينابيع متناقضة ، وافساح المجال امامها للاصطدام في كل لحظة بسبب اختلاف مبادئها الاساسية في ما يتعلق بجميع مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والفردية . ان ابقاء هذه الحال على ما هي ، يعني غرس البذور لخلافات مستقبلة تسمم حياة هذه الجماعات وتقضي عليها قضاء مبرماً . ومن ثم ، فالحل المعقول للاضطراب السائد البلدين السوري واللبناني لا يمكن ان يكون الا في حشد الجماعات التي تدين بمبادئ مماثلة ، روحية

وأدبية ، تحت سماء واحدة .

ترى ، ما أشد التناقض بين النصارى والمسلمين في الشرق : فهناك حضارتان مختلفتان في الاساس، تدين بهما جماهير مختلطة بعضها ببعض منذ ١٣ قرناً ، مع ان العقائد والاميال متضاربة وعلى طرفي نقيض . ففي نظر المسلمين ، ليست الامة سوى الاسلام وسيطرة الدين الواحد على كل مظاهر الحياة الفردية والاجتماعية . اما في نظر النصارى ، فالامة ترتكز على المساواة بين جميع السكان ، تربطهم العاطفة الوطنية ، وعلى الحرية المطلقة في كل ما يتعلق بشؤونهم الروحية ومعتقداتهم .

ان في لبنان وسوريا ، حالياً ، نحواً من مليون مسيحي فاذا صار حشدهم في بلد حرّ كلبنان ، بناء على تنظيم يتناسب وحالة سكانه ، ومنحت الدول هذا البلد صفة خاصة بحيث يكون حصناً منيعاً للحريات الانسانية كلها وطبقاً للمعتقد المسيحي، في هذه الحال يمكن لهذه الاقليات المسيحية ان تتمتع بحياة حرة وتعالج شؤونها السياسية والاجتماعية طبقاً لشعورها الخاص ، دون ما خطر ، منها او عليها ، من جراء مجاورتها لشعوب اسلامية . بل ان هذا الحل يساعد على توطيد عرى الصداقة والتفاهم مع الشعوب الاسلامية المجاورة ، اذ تكون هذه الاخيرة قد حققت ما ترنو اليه من أهداف واماني سياسية واجتماعية في وحدة عربية « مشيدة على مبادئ القرآن في كل ما يتعلق بالدين والسياسة والحياة الاجتماعية » . (١)

ان لنصارى الشرق حقاً مقدساً واضحاً بالتمتع بحرية الاعتقاد والمساواة السياسية . فهل يكون هذا الحق اقل قداسة ووضوحاً من طموح المسلمين في جميع انحاء الشرق نحو السيطرة الاسلامية ضمن الوحدة العربية ؟

بل ان مصلحة المسلمين انفسهم تقضي عليهم كما تقضي على نصارى الشرق ، بان يؤلفوا امتين منفصلتين ، بحيث تكون كل امة متناسقة الاعضاء .

---

(١) راجع بيان علماء دمشق في الصفحة ٣٣ .

وقابلة المتطور الذي يتفق وشعورها الديني دون ان تصطدم الواحدة بالاخرى، فتسيران الواحدة مستقلة عن الاخرى ، نحو أهدافهما الخاصة .

وبفضل هذا «الطلاق» الطوعي يوافق عليه كلا الفريقين عن طيبة خاطر، يوضع حد فاصل لماض منقرض ، لا يجوز تجديد فصوله المروعة . حينئذ يمكن للنصارى والمسلمين في الشرق ، ان يتحرروا من روح النزاع المتبادل ، وتتحقق ، للنصارى من جهة ، وللمسلمين من ناحية اخرى ، وحدة روحية هي الشرط الاول والاساس الضروري لتأمين استقلالهم السياسي .

لدى بزوغ فجر هذا الانقلاب العالمي العظيم ، وامام ما تبذله الامم من جهود لتنظيم الدول تحت راية العدالة والمساواة ، يشعر نصارى الشرق بآمال كبيرة حملتهم الى توجيه نداء حار الى روح العدالة والحصافة السياسية التي تتجلى في اساطين الدول المتحدة ، ملتمسين منهم ان يضعوا حلاً نهائياً لمعضلة مسيحيي الشرق فيضمنوا لهم حياة هادئة وشريفة في وطن قومي حر ومستقل .

وهل يجوز ان تبقى الاقليات المسيحية في الشرق مغضوباً عليها ومكتوباً لها الشقاء والذل في عالم جديد ينهض لحياة حافلة بمظاهر الكرامة والرفاهية ؟

هذه الاقليات ترسل صرختها باسم المبادئ السامية الازلية التي تؤيد حقها بالحياة والطمأنينة ، بل باسم ما عانت من اهوال وآلام طوال عصور مديدة وباسم ما لديها من كنوز روحية وتاريخية . انها تنادي ، فوق كل شيء ، بحقها في الحياة تحت سماء مشبعة من روحها وان يتوارى رفاتها في تربة طليقة من كل عبودية .

فنصارى الشرق يطالبون بان يكون لهم وطن قومي مسيحي :

وهذا الوطن هو لبنان !




umam
للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research